حفلات الرداءة الأدبية

جائزة الرواية في معرض الرياض الدولي للكتاب نموذجاً

عبدالواحد الأنصاري

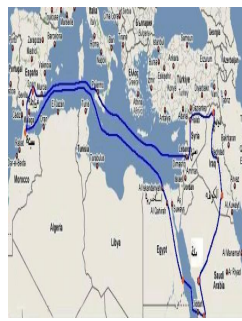

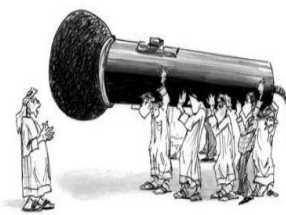

*

للتواصل مع المؤلف:

grnaty2@gmail.com

@abdulwahed1978

*ملحوظة: صورة الغلاف ضوئيتان إحداهما من كاريكاتير على الشبكة لمقال قصير للكاتب منير سعدي، بعنوان "فن تكريس الرداءة" وتاريخ 25 يناير 2012. والأخرى خريطة من موقع المسافرون العرب لرحلة ابن جبير، من مقال بعنوان "الرحالة العربي ابن جبير" وتاريخ 18 ديسمبر 2014.

عرفان لمن هو أهله

بين يدي هذا الكتاب، وبعد حمد اللّه تعالى، أوجه شكري وعرفاني العميقين، إلى الشيخ سالم العماش الشمري، الذي كانت صداقته ومواساته أبرز ما أعاد إلي حماستي إلى الكتابة الأدبية، وللّه الحمد من قبل ومن بعد.

والحديث ذو شجون

أصل هذا الكتاب مطارحة أدبية بيني وبين الكاتب القاص الناقد عبدالله الزماي، حول المواضع الواردة عن المُغَنّي زرياب[1] في كتاب نفح الطيب للمقري التلمساني، وذلك على هامش الشهرة التي حظيت بها رواية (زرياب)[2] للكاتب مقبول العلوي، عقب فوزها بجائزة الرواية في معرض الرياض الدولي للكتاب عام 2015. ولم تكن رواية العلوي في متناول يدي آنذاك، ثم عثرت عليها وقرأتها، (فلم أملك نفسي)، (كما يقول أبو الفضل القونوي)[3] أن أضيف إليها رأيي الفني في الرواية المذكورة وفي أجواء الحفاوة التي حفّت بها، مع ما فيها من (الأخطاء المميتة، والمفارقات التاريخية المدمرة)، (بحسب تعبير غابرييل غارسيا ماركيز)[4]، وهو ما لا يدع مجالاً للشكّ في أن الجائزة، التي كان يُنتظرُ أن تهدى إلى الجودة، ذهبت إلى الرداءة، أو أن وصفها بأنها جائزة خُصصت للأعمال الأدبية الجميلة إنما هو من باب وصف الشيء بضده.

وغنيّ عن القول أن من أوجب الحقوق التي ينبغي لأجواء المطارحات الأدبية أن تتمتع بها، انسيابَها وعفويّتها

---

(1) مغنٍّ عباسي اسمه علي بن نافع، وكنيته أبو الحسن، ولد في النصف الأخير من القرن الهجري الثاني، وسافر إلى الأندلس عام 206هـ، وذاع صيته بها، وتوفي عام 238هـ، وسيأتي الحديث عنه مستفيضاً في ثنايا هذا الكتاب.

(2) صدرت عن دار الساقي، بيروت، لبنان، 2014، في 224 صفحة من الورق المتوسط.

(3) انظر: موقف خليل بن أيبك الصفدي من ابن تيمية، أبو الفضل القونوي (ص7).

(4) الجنرال في متاهته، ترجمة الدكتور محمد العبد حمود (ص196).

وانفعالاتها، مع أن ذلك لا يعني -بأي حال- أن نسقط عن هذا النوع من الكتابة واجب الصدق والدقة والإنصاف.

وعذري في ذلك أن من المواقف الأدبية ما لا يفي صوت الأسلوب الأكاديمي بالإبلاغ عنه بإفصاح وبيان[5].

ولئن كانت للرداءة الأدبية حفلة، فلتكن للجودة الأدبية صرخة!

السبت، 27، ذو الحجة، 1436 (10 أكتوبر 2015)

(5) انظر: موقف خليل بن أيبك الصفدي من ابن تيمية، أبو الفضل القونوي (ص7).

غنيّ عن القول، ولا بد من ذكره!

غنيّ عن القول، ولا بد من ذكره!

وكان غنياً عن القول أيضاً أن الرواية التاريخية (ورواية زرياب من هذا النوع) لها اشتراطات فنية دقيقة، ينبغي لكاتبها أن يحتاط لها، وأن يجتنب المزالق التي من شأنها أن تهبط بالعمل الأدبي إلى أدنى مستوياته، وأن تلك الاشتراطات تتعلق بحكاية الواقع، وسرد الأحداث، والشخصيات، والحوار، وهذه الاشتراطات وإن كانت لا تعفى منها أيُّ رواية، فإنها تمثل تحدياً أشدّ أمام الرواية التاريخية، إذ إن خدعة السرد التاريخي تقوم على الإيهام بصدق هذا السرد، أو إمكان وقوعه –على الأقل- في زمن الرواية وواقعها وشخصياتها.

يقول الروائي البيروفي ماريو بارغاس يوسا:

(ربما كانت هي اللحظة المناسبة، يا صديقي الروائي المبتدئ، للحديث عن **مفهوم خطير** مطبّق على الأدب، إنه الحقيقة (الأصالة). ما معنى أن يكون الكاتب حقيقياً (أصيلاً)؟ من المؤكد أن التخيّل هو، في التعريف، خداع –إنه **واقع ليس بواقع، ويتظاهر بأنه كذلك- وكل رواية هي كذبة تحاول التظاهر بأنها حقيقة. إنها اختلاق تعتمد قوة الإقناع فيها على الاستخدام الفعال فقط** لبعض التقنيات الإيهامية والشعوذة المشابهة لمشعوذات سحرة السيرك والمسارح. وهكذا، هل من الممكن التكلم عن حقيقية في

مجال الرواية، وهي جنس أدبي أكثر ما فيها "حقيقة" هو كونها خدعة، وهماً، سراباً؟ أجل...)[6].

ويقول: (الرواية الرديئة التي تفتقر إلى قوة الإقناع، أو التي تملكها ضعيفة جداً، لا تقنعنا بحقيقة الكذبة التي ترويها لنا. وعندئذ تظهر لنا تلك الكذبة على حقيقتها، مجرد "كذبة"، خدعة، بدعة تعسفية وبلا حياة خاصة بها؛ تتحرك بتثاقل وخراقة، مثل دمى محرك عرائس سيئ. وتظهر الخيوط التي يحركها بها صانعها واضحة للعيان. وتكشف عن شرطها ككاريكاتير للكائنات الحية...)[7].

وفي هذا المعنى نفسه، يقول الروائي الإيطالي أمبرتو إيكو، حول روايته (اسم الوردة):

(لكي تروي قصة يجب عليك أولاً أن تشيد عالماً، وتؤثثه بقدر ما تستطيع حتى أبسط التفصيلات الضئيلة)[8].

ويقول: (ما إن يتم تأثيث العالم المبتكر قليلاً حتى تتوافر بداية قصة)[9].

ويقول: (كانت السنة الأولى من عملي على الرواية مكرسة لتشييد العالم: مدونات من جميع الكتب التي يمكن العثور عليها في مكتبة من القرون الوسطى. قوائم بأسماء الأعلام

---

(6) رسائل إلى روائي شاب، ماريو برغاس يوسا، ترجمة صالح علماني (ص24).
(7) السابق (ص30).
(8) تأملات في اسم الوردة، أمبرتو إيكو، ترجمة سعيد الغانمي (ص37).
(9) السابق.

والمعلومات الشخصية عن شخصيات متعددة، استبعد عدد منهما فيما بعد عن القصة. بكلمات أخرى، كان عليّ أن أعرف حتى الرهبان الذين لن يظهروا في الكتاب. ليس من الضروري للقارئ أن يعرفهم، لكن كان عليّ أنا أن أعرفهم، من قال ذات مرة إن السرد ينافس مصالح الحالة المدنية. لعله يجب أن ينافس أيضاً مصالح التخطيط العمراني. لذلك أجريت تحقيقات هندسية مطولة، دارساً الصور الفوتوغرافية، ومخططات السقوف في موسوعات الهندسة المعمارية، بغية التوصل إلى رسم هندسي للدير، والمسافات، وحتى عدد العتبات في السلالم اللولبية. قال لي المخرج ماركو فيريري ذات مرة إن حواراتي سينمافوتوغرافية لأنها تدوم الوقت المناسب. وهذا ما حصل فعلا. حين كان اثنان من شخصياتي يتحدثان وهما يتمشيان من قاعة الأكل في الدير إلى الرواق، كنت أكتب وأمامي الرسم البياني، وحين يصلان إلى مقصدهما كانا يكفان عن الكلام)[10].

ويقول: (الحوار خلق لي مشكلة أخرى: إلى أي حد يمكنه أن يكون من القرون الوسطى؟ بكلمات أخرى، حين كنت أكتب الكتاب أدركت أنه يتخذ بيئة عمل أوبرالي، ذي مقاطع غنائية طويلة وأنغام مترويه. الأنغام (وصف الباب الكبير على سبيل المثال) كانت تحاكي البلاغة الرزينة للقرون الوسطى، ولا نشكو من ندرة النماذج على ذلك، أما الحوار ففي نقطة معينة كنت أخشى أن يبدو كحوار أغاثا

(10) السابق (ص38).

كريستي، بينما الأنغام سوجر أو القديس برنارد، أعدت قراءة روايات القرون الوسطى، أي الملاحم الفروسية، فأدركت أنني، وإن كان ببعض الحرية، كنت أتبع استعمالاً شعرياً وسردياً ليس بمجهول عند أهل القرون الوسطى)[11].

ويقول: (بهذا المعنى، بالتأكيد أردت كتابة رواية تاريخية، ليس لأن أوبارتيني أو ميكيلي قد وُجدا في الواقع وقالا أكثر أو أقل مما قالاه، بل لأن كل ما يمكن أن تقوله الشخصيات الخيالية مثل غوليالمو كان قد قيل في تلك الحقبة)[12].

ويقول: (على أية حال، كان هناك شيء يسليني غاية التسلية: ففي كل مرة يكتب فيها ناقد أو قارئ قائلاً إن بعض شخصياتي تصرح بأشياء حديثة جدا، أكون في تلك الحالات التي يستشهد بها بالذات قد اقتبست فعلاً نصوصاً من القرن الرابع عشر)[13].

ويقول: (مشكلة أخرى، ألا وهي تركيب الأصوات، و بالأحرى وجهات النظر السردية. كنت أدرك أنني أنا أروي قصة تجري على لسان شخص آخر، وقد أعلنت في المدخل أن

(11) السابق (ص44و45).
(12) السابق (ص81).
(13) السابق (ص82).

كلمات الشخص تمت تصفيتها من خلال وجهتي نظر سرديتين أخريين في الأقل)[14].

وبعد، فإن روائياً، أو ناقداً، أو قارئاً، قد ينقضّ عليّ من بين هذه السطور، قائلاً: ولكنك تتحدث عن وجهة نظر أمبرتو إيكو، وهو باحث تاريخي وناقد، ولعله اشترط على نفسه اشتراطات لا يلتزم بها الروائيون الآخرون، الذين لم يتخصصوا في البحث التاريخي، فأين أنت من أولئك الكتاب الذين قد يطلقون العنان لخيالهم في الماضي ويؤلفون الأعمال الروائية عن الشخصيات القديمة دون التزام ولا تقيّد بجميع هذه الاشتراطات، من أمثال غابرييل غارسيا ماركيز.

والجواب -مع قسوته-: أن هذا القول غير صادق، أو مفتقر إلى الخبرة من أكثر من جهة:

من جهة: أن مؤلف هذه الروايات عندما يتحدث عن نفسه، فإنه لا يعترف بأنه لا يدرك شيئاً عن الواقع، بل يدعي أنه أجرى البحوث الوافية، وراعى دقة الوقائع التاريخية وراجعها مراجعة جيدة، ثم إنه قد ينفي وجود أخطاء فيها نفياً قاطعاً، إلا ما ندر[15]، وقد يقر بهذه الأخطاء، ولكنه يدعي من جهة

---

(14) السابق (ص45).

(15) انظر: محاورة صادق الشعلان لمقبول العلوي حول روايته (زرياب)، في صحيفة الحياة، بتاريخ 6 مايو 2015، حيث ينكر وجود تضارب تاريخي وجغرافي فيها، ويقر بوجود أخطاء مثل خطئه في الترتيب بين مدينتي عكا وصور، وهو في الحقيقة خطأ أتى من تعقبه في رحلة (زرياب) المتخيلة لرحلة ابن جبير من بغداد إلى عكا ثم صور، وكان ابن جبير اتجه إلى صور شمالاً للتأكد من صلاحية مركب وُصف

أخرى أن ما أصاب فيه الدقة من الوقائع كان من استنتاجاته الشخصية[16]، ثم إذا أثبت القارئ والناقد الحصيف له أنه وقع في هذه الأخطاء برمّتها، فعندئذ قد يظهر صوت العارف أو غير العارف المدافع عن (إعمال الخيال والاعتماد على عفوية الإلهام).

ومن جهة: أن أهل الفنّ من كتاب الرواية يدركون حقيقة أنه ما من كاتب يعتمد في بناء عمله الروائي على الإلهام المجرّد، وفي هذا يقول أمبرتو إيكو نفسه: (حين يخبرنا المؤلف بأنه كان يعمل بنشوة الإيحاء فهو يكذب، فالعبقرية تتألف من واحد بالمائة من الإيحاء، وتسعة وتسعين بالمائة من الكدح. لقد نسيت أية قصيدة شهيرة من قصائد لامارتين قال إنها جاءته في ومضة واحدة، ذات ليلة عاصفة، في غابة من الغابات، وحين توفي تم العثور على المخطوطة الأصلية، وهي ملأى بالمراجعات والتصحيحات، وبذلك أثبتت القصيدة أنها أكثر نص "كُدح فيه" في الأدب الفرنسي برمّته. وحين يقول الكاتب (أو الفنان بشكل عام) إنه عمل على نص دون أن يعير اعتباراً لقوانين العملية

له، ثم عاد إلى عكا، فالخطأ إنما جاء من تتبع المؤلف لرحلة ابن جبير وتركيب رحلة زرياب عليها، وبينهما أكثر من ثلاثة قرون! (وسيأتي).

(16) انظر أيضاً: محاورة عبدالله الزماي للعلوي حول رواية (زرياب)، في صحيفة الرياض، بتاريخ 15 يوليو 2015، حيث يزعم أنه توصل "باستنتاج شخصي" إلى أمر ليس في الحقيقة استنتاجه الشخصي، ولكنه معلومة نص عليها المؤرخ ابن القوطية! (وسيأتي)، وفي الحوار نفسه يتحدث المؤلف بما يوحي أنه كتب رحلة زرياب من بغداد إلى الأندلس من تخيله، وهو في الحقيقة إنما مشى بالبطل من بغداد إلى عكا وفقاً لرحلة ابن جبير في العودة من الحج إلى الأندلس، على رغم أن رحلة ابن جبير كانت بعد وقت زرياب بأكثر من ثلاثة قرون! (وسيأتي الحديث عن هذا مفصلاً).

التي يكتب وفقها، فإنه يعني ببساطة أنه كان يعمل دون أن يدرك أنه يعرف القوانين)[17].

وإذا كان لا بدّ من الإتيان بشهادة من أولئك الكتاب الذين قد يُنسبون إلى عدم الاختصاص التاريخي أو البحثي، مع محاولة الإلقاء بعبء مزالق روائيينا الفنية على كواهلهم (وأولئك لم يقعوا فيها)، فإن شهادات عظماء هؤلاء الروائيين، مثل غابرييل غارسيّا ماركيز، تثبت ضد ذلك، بل وتؤيّد شرح أمبرتو إيكو المذكور أعلاه، من أنهم كانوا يعملون وفقاً لهذه الاشتراطات، وإن كانوا لا يعون ذلك. يقول ماركيز في تذييله لروايته (الجنرال في متاهة):

(ما كان لهذا الكتاب أن يرى النور لولا مساعدة أولئك الذين سبقوني إلى اكتشاف تلك الأراضي خلال قرن ونصف، **وهكذا سهلوا علي المجازفة الأدبية برواية سيرة حياة مدونة في مراجع عاتية دون التخلي مع ذلك عن الأصول الجسورة التي تقتضيها الرواية.** ولكني حريص على التوجه بالامتنان إلى مجموعة من أصدقائي القدامى والجدد الذين أولوا، مشكورين أهمية قصوى لشكوكي إزاء بعض القضايا –إلى حد اعتبارها شكوكهم- من مثل حقيقة الفكر السياسي لبوليفار –وسط تناقضاته الفاقعة- أو حتى الشكوك الأكثر تفاهة، **مثل قياس حذائه**)[18].

(17) تأملات في اسم الوردة، أمبرتو إيكو، ترجمة سعيد الغانمي (ص23و24).
(18) الجنرال في متاهته، ترجمة الدكتور محمد العبد حمود (ص195).

ويقول: (المؤرخ البوليفي فينسيو روميرو مارتينيز ساعدني من مقره في كاراكاس باكتشافات بدا لي من المستحيل معرفتها، والمتعلقة بالعادات الخاصة ببوليفار –وعلى وجه التحديد لغته البذيئة- وطبائع مصير حاشيته، كما ساعدني في تفحص الوقائع التاريخية في النص النهائي بطريقة متأنية، **وأنا مدين له بالملاحظة المشفقة أنه ما كان بمقدور بوليفار أكل ثمار المانغا بتلذذ الأطفال كما زعمت أنا لسبب وجيه إذ كان علينا الانتظار عدة سنوات إضافية لتعرف أشجار المانغا في أميركا**)[19].

ويقول: (وبناء لطلبي قام كل من الجغرافي غلادستون أوليفا والفلكي جورج بيريز دوفال من أكاديمية العلوم في كوبا بإحصاء لليالي التي ظهر فيها البدر كاملاً خلال السنوات الثلاثين الأولى من القرن التاسع عشر.

صديقي القديم هنيبعل نوغيرا مندوزا أرسل لي من سفارته الكولومبية في بور-أو-برنس صوراً عن وثائقه الخاصة وإذنه الكريم للإفادة منها بحرّية مطلقة بالرغم من كونها ملاحظات ومسودات لدراسة كان يقوم بها حول نفس الموضوع **إضافة إلى أنها ساعدتني على أن أكتشف في مسودة النسخة الأولى للرواية أخطاء مميتة ومفارقات تاريخية مدمرة كان يمكنها أن تزرع الشك حول مصداقية هذه الرواية.**

(19) السابق.

وأخيراً أنطونيو **بوليفار** غوايان- **قريب بعيد لبطل الرواية**. وهو بدون شك آخر عامل طباعة على الطريقة القديمة في المكسيك- **تكرم علي بمراجعة الأصول متصيداً المغالطات، التكرار، ما هو غير منطقي، الأخطاء والأغلاط المطبعية، في تفحص دقيق للغة والإملاء حتى استنفاد سبع صياغات للرواية. وهكذا ضبطنا بالجرم المشهور عسكريا ينتصر في المعارك قبل أن يولد، وأرملة تسافر برفقة زوجها المحبوب)**[20].

وبهذا، نخلص إلى أن أيّ رواية تُكتب، فإنه لا بد لكاتبها من أن يمتلك مهارات المحرّر المطلوبة للمحافظة على اشتراطاتها الفنية، أو أن يستعين بمن يساعده في تحريرها، وإلا فإنها لا تعدو أن تكون مسوّدة رواية مليئة بالأخطاء القاتلة والمفارقات المميتة.

فإذا حفلت الرواية (أيا كانت) بهذه الأخطاء ثم طبعت، ثم بعدُ حازت جائزة أفضل رواية، في معرض الرياض الدولي للكتاب، فعندئذ، هل على القارئ الغيور من حرَج إذا هو كتب في استنكار ذلك، ولو بعنوان: (حفلات الرداءة الأدبية)؟

(20) السابق (ص196).

نزهة مع أبي صالح في زرياب نفح الطيب

نزهة مع أبي صالح في زرياب نفح الطيب[21]

السلام عليكم أبا صالح، كيف أنتم؟

وبعد ما جرى بيننا من حديث في تلك الليلة التي آنستنا فيها بقدومك الكريم، وحرمتنا فيها من تضييفك والحفاوة بك، وبما أن الحديث كله دار عن المواضع التي ورد فيها الحديث عن زرياب في كتاب نفح الطيب للمقّري التلمساني، وبما أن رواية الكاتب مقبول العلوي المحلية المشار إليها – وتحمل اسم زرياب- حصلت على جائزة من جوائز أيامنا هذه.

على ذلك كله، أيها النديم الفاضل، سأبدأ معك ومع زرياب ونفح الطيب، من دون مقدمات.

(21) من هنا تبدأ المطارحة الأدبية بيني وبين (أبي صالح) الأستاذ الكاتب القاص الناقد عبدالله الزماي، وأرسلتها إليه يوم الثلاثاء 15 شعبان 1436 (2 يوليو 2015)، حول المواضع التي ورد فيها ذكر المغني زرياب في كتاب نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، للمقّري التلمساني، ورأيت تقديم هذا الفصل (مع إجراء تعديلات يسيرة يتطلبها سياق الكتاب)، وذلك لأنني أود أن يعرف القارئ الكريم من يكون زرياب من خلال كتب التاريخ والأدب، حتى يكوّن عنه وعن حياته تصوراً كافياً، مع الإشارة إلى بعض أخطاء الرواية فيما يتعلق بذلك في الهامش، ليكون مهيَّأً في الفصل الآتي لمناقشة المشكلات الفنية الواردة في الرواية.

الموضع الأول

أورد المقري التلمساني (المتوفى 1041هـ) في نفح الطيب، عندما تحدث عن بدايات حكم عبدالرحمن بن الحكم، ما يأتي، فقال:

(وقام بأمره من بعده ابنه عبد الرحمن، بعهد منه إليه، ثم لأخيه المغيرة بعده، فغزا عبد الرحمن لأول ولايته إلى جليقية وأبعد، وأطال المغيب، وأثخن في أمم النصرانية هنالك، ورجع.

وقدم عليه سنة ست ومائتين زرياب المغني من العراق، وهو مولى المهدي ومتعلم إبراهيم الموصلي، واسمه علي بن نافع، فركب بنفسه لتلقّيه، على ما حكاه ابن خلدون، وبالغ في إكرامه، وأقام عنده بخير حال، وأورث صناعة الغناء بالأندلس، وخلف أولاداً فخلفه كبيرهم عبد الرحمن في صناعته وحظوته)[22].

<u>تعليق:</u>

هذه الكلمات هي وثلاث صفحات إضافية تقريباً منقولة من تاريخ ابن خلدون وفيها تعديل وحذف وإضافة.

وسوف أسوق لك ما ذكره ابن خلدون هنا، وقارن بينه وبين هذا:

(22) نفح الطيب، المقري التلمساني، ج344/1.

يقول ابن خلدون (المتوفى 808هـ) ما نصه:

(ولما مات قام بأمره من بعده ابنه عبد الرحمن فخرج عليه لأوّل إمارته عبد اللّه البلنسي عمّ أبيه، وسار إلى تدميرَ يريد قرطبة فتجهّز له عبد الرحمن، فحام عن اللقاء، ورجع إلى بلنسية ومات إثر ذلك، فنقل عبد الرحمن ولده وأهله إلى قرطبة. ثم غزا لأوّل ولايته إلى جليقة، فأبعد وأطال الغيبة وأثخن في أمم النصرانية هنالك، ورجع. وقدم عليه سنة ست ومائتين من العراق زرآب المغنّي مولى المهدي ومعلّم إبراهيم الموصلي، واسمه علي بن نافع، فركب لتلقيه وبالغ في إكرامه، وأقام عنده بخير حال، وأورث صناعة الغناء بالأندلس وخلف ولده مخلفه كبيرهم عبد الرحمن في صناعته وحظوته)[23].

فلعلك، أبا صالح، تلحظ الحذف والإضافة أعلاه، وقس على ذلك ما قد يقع في يديك من كثير من الكتابات التي تعزو إلى نفح الطيب، ولكن بالرجوع مرة أخرى إلى ابن خلدون، ستجده تكلم (في المقدمة) عن زرياب في معرض تقرير اجتماعي مهم، لم يشر إليه صاحبنا المقري، وهذا النص لا أعتقد أن كاتب أو قارئ رواية تاريخية عن الغناء يستطيع أن يقول إنه في غنى عنه، وهذا هو، يقول ابن خلدون:

---

(23) تاريخ ابن خلدون، ج163/4 وما بعدها.

(وإذ قد ذكرنا معنى الغناء فاعلم أنّه يحدث في العمران إذا توفر وتجاوز حدّ الضّروريّ إلى الحاجيّ، ثمّ إلى الكماليّ، وتفنّنوا فيه، فتحدث هذه الصّناعة، لأنّه لا يستدعيها إلاّ من فرغ من جميع حاجاته الضّروريّة والمهمّة من المعاش والمنزل وغيره فلا يطلبها إلا الفارغون عن سائر أحوالهم تفنّنا في مذاهب الملذوذات. وكان في سلطان العجم قبل الملّة منها بحر زاخر في أمصارهم ومدنهم. وكان ملوكهم يتّخذون ذلك ويولعون به، حتى لقد كان لملوك الفرس اهتمام بأهل هذه الصّناعة، ولهم مكان في دولتهم، وكانوا يحضرون مشاهدهم ومجامعهم ويغنّون فيها. وهذا شأن العجم لهذا العهد في كلّ أفق من آفاقهم، ومملكة من ممالكهم. وأمّا العرب فكان لهم أوّلا فنّ الشّعر يؤلّفون فيه الكلام أجزاء متساوية على تناسب بينها في عدّة حروفها المتحرّكة والسّاكنة. ويفصّلون الكلام في تلك الأجزاء تفصيلا يكون كلّ جزء منها مستقلا بالإفادة، لا ينعطف على الآخر. ويسمّونه البيت. فتلائم الطبع بالتجزئة أوّلاً، ثمّ بتناسب الأجزاء في المقاطع والمبادئ، ثمّ بتأدية المعنى المقصود وتطبيق الكلام عليها. فلهجوا به، فامتاز من بين كلامهم بحظّ من الشّرف ليس لغيره لأجل اختصاصه بهذا التناسب. وجعلوه ديوانا لأخبارهم وحكمهم وشرفهم ومحكا لقرائحهم في إصابة المعاني وإجادة الأساليب. واستمرّوا على ذلك. وهذا التناسب الذي من أجل الأجزاء والمتحرّك والسّاكن من الحروف قطرة من بحر من تناسب الأصوات كما

هو معروف في كتب الموسيقى. إلا أنهم لم يشعروا بما سواه لأنهم حينئذ لم ينتحلوا علماً ولا عرفوا صناعة. وكانت البداوة أغلب نحلهم. ثمّ تغنّى الحداة منهم في حداء إبلهم والفتيان في فضاء خلواتهم، فرجّعوا الأصوات وترنموا. وكانوا يسمّون الترنم إذا كان بالشّعر غناءً، وإذا كان بالتهليل أو نوع القراءة تغبيراً بالغين المعجمة والباء الموحّدة. وعللها أبو إسحاق الزّجّاج بأنها تذكر بالغابر، وهو الباقي، أي بأحوال الآخرة. وربّما ناسبوا في غنائهم بين النّغمات مناسبة بسيطة كما ذكره ابن رشيق آخر كتاب العمدة وغيره. وكانوا يسمّونه السّناد. وكان أكثر ما يكون منهم في الخفيف الذي يرقص عليه ويمشى بالدّفّ والمزمار فيضطرب ويستخفّ الحلوم. وكانوا يسمّون هذا الهزج وهذا البسيط، كلّه من التلاحين، هو من أوائلها، ولا يبعد أن تتفطن له الطباع من غير تعليم شأن البسائط كلّها من الصّنائع. ولم يزل هذا شأن العرب في بداوتهم وجاهليّتهم. فلمّا جاء الإسلام واستولوا على ممالك الدّنيا وحازوا سلطان العجم وغلبوهم عليه، وكانوا من البداوة والغضاضة على الحال التي عرفت لهم مع غضارة الدّين وشدّته في ترك أحوال الفراغ وما ليس بنافع في دين ولا معاش، فهجروا ذلك شيئاً ما. ولم يكن الملذوذ عندهم إلا ترجيع القراءة والترنم بالشّعر الذي هو ديدنهم ومذهبهم.

فلمّا جاءهم الترف وغلب عليهم الرّفه بما حصل لهم من غنائم الأمم صاروا إلى نضارة العيش ورقة الحاشية واستحلاء

الفراغ. وافترق المغنّون من الفرس والرّوم فوقعوا إلى الحجاز وصاروا موالي للعرب وغنّوا جميعاً بالعيدان والطنابير، والمعازف والمزامير، وسمع العرب تلحينهم للأصوات، فلحّنوا عليها أشعارهم. وظهر بالمدينة نشيط الفارسيّ وطويس وسائب بن جابر مولى عبيد اللّه بن جعفر، فسمعوا شعر العرب ولحّنوه وأجادوا فيه وطار لهم ذكر. ثمّ أخذ عنهم معبد وطبقته وابن سريج وأنظاره. وما زالت صناعة الغناء تتدرّج إلى أن كملت أيّام بني العبّاس عند إبراهيم بن المهديّ وإبراهيم الموصليّ وابنه إسحاق وابنه حمّاد.

وكان من ذلك في دولتهم ببغداد ما تبعه الحديث بعده به وبمجالسه لهذا العهد، وأمعنوا في اللهو واللّعب، واتخذت آلات الرّقص في الملبس والقضبان والأشعار التي يُترنم بها عليه. وجُعل صنفاً وحده، واتُّخذت آلاتٌ أخرى للرّقص تسمّى بالكرج، وهي تماثيلُ خيلٍ مسرجة من الخشب معلّقة بأطراف أقبية، يلبسها التّسوان ويحاكين بها امتطاء الخيل، فيكرّون ويفرّون ويتثاقفون وأمثال ذلك من اللّعب المعدّ للولائم والأعراس وأيّام الأعياد ومجالس الفراغ واللهو. وكثر ذلك ببغداد وأمصار العراق، وانتشر منها إلى غيرها. **وكان للموصليّين غلام اسمه زرياب أخذ عنهم الغناء فأجاد فصرفوه إلى المغرب غيرة منه، فلحق بالحكم بن هشام بن عبد الرّحمن الدّاخل أمير الأندلس. فبالغ في تكرمته وركب للقائه وأسنى له الجوائز والإقطاعات والجرايات وأحله من دولته وندمائه بمكان.**

فأورث بالأندلس من صناعة الغناء ما تناقلوه إلى أزمان الطوائف. وطما منها بأشبيليّة بحرٌ زاخر، وتناقل منها بعد ذهاب غضارتها إلى بلاد العدوة بإفريقيّة والمغرب. وانقسم على أمصارها، وبها الآن منها صُبابة على تراجع عمرانها وتناقص دولها. وهذه الصّناعة آخر ما يحصل في العمران من الصّنائع لأنّها كماليّة في غير وظيفة من الوظائف إلاّ وظيفة الفراغ والفرح. وهو أيضا أوّل ما ينقطع من العمران عند اختلاله وتراجعه. والله أعلم)[24].

والحاصل يا أبا صالح، أنه لا يستقيم أخذ أي نص من نفح الطيب من دون محاولة ربطه بأصوله والتحقيق فيها، لأنه قد ينقل مشهداً من ضمن واقع يحتاج إلى تحقيق اجتماعي دون أن يورد من ذلك التحقيق شيئاً، وقد ينقل من المصدر مع زيادة ونقص وتعديلات، وأحيانا ينقل بواسطة (بسبب أنه ليس من أهل الأندلس، فهو تلمسانيّ على اسمه، وقد كتب كتابه في المشرق، خلافاً لما قد يظن الناس أنه من تلمسان وقد رأى الأندلس، فإن ذلك من المحال، لأنه ولد بعد سقوطها بعقود) ثم إذا نقل المَقّري عن مصدر ما بواسطة، فإنه لا يذكر

---

(24) تاريخ ابن خلدون، ج1/ 538 وما بعدها.
قلت: وأرجو منك أيها القارئ الكريم أن تقارن بين الكلام الحصيف الذي ذكره ابن خلدون هنا، وبين ما جاء في رواية (زرياب) على لسانه إذ يقول: (كانت مئة وخمسة عشر عاماً قد مرت منذ الفتح الأول ولكن لم يكن هناك استقرار مجتمعي، فالحروب والثورات لم تكن تسمح ببناء الإنسان الحامل سيفه دوماً والراكب على جواده أبداً. ومع تسلم هذا الأمير عبدالرحمن بن الحكم فقد بدأت بوادر الاستقرار تلوح في الأفق وبدأ الناس يفكرون في كيفية العيش بسلام بعضهم مع بعض، فبقدر ما يكون هناك قبول للآخر وتعايش وهدوء حينها يبدأ الإنسان بالتفكير في النمط المريح لحياته)، (رواية زرياب، ص201 و202)!

تلك الواسطة، وقد ينقل دون عزو، كما سيتبين لك إن شاء الله.

أما أهمية نقلي هذا الكلام أعلاه عن ابن خلدون، كما ترى، فهي أن نعلم أن مؤرخي ذلك الزمان كانوا يعدون تطور فنون اللهو من الفراغ، لا أنه من ضرورات العمران ولا حاجاته، ومن غير فهم هذا التقرير لا تكتمل قراءة ولا فهم مفهوم الموسيقى ولا يتيسر النظر إليها بالعين التي كان يراها بها مفكرو وعلماء ذلك الزمان.

تابع القراءة أدناه يا صديقي، واصبر معي..

الموضع الثاني

قال المقري التلمساني:

(وقال محمد بن لبابة: فقيه الأندلس عيسى بن دينار، وعالمها عبد الملك بن حبيب، وراويها يحيى بن يحيى. وكان عبد الملك قد جمع إلى علم الفقه والحديث علم اللغة والإعراب، وتصرف في فنون الآداب، وكان له شعر يتكلم به متبحراً، ويرى ينبوعه بذلك متفجراً، وتوفي بالأندلس في رمضان سنة 238 وهو ابن ثلاث وخمسين سنة بعدما جال في الأرض، وقطع طولها والعرض، وجال في أكنافها، وانتهى إلى أطرافها.

ومن شعره قوله:

قد طاح أمري والذي أبتغي هَيْنٌ على الرحمن في قدرتِهْ

ألفٌ من الحُمر وأقلِلْ بها لعالمٍ أربى على بُغيتِهْ

زريابُ قد أعطيها جُملةً وحرفتي أشرف من حرفتِهْ)[25].

(25) نفح الطيب، المقري التلمساني، ج7/2.
قلت: وكان فقهاء وأدباء ورجال الأمير منكرين للتبذير الشديد والفساد المالي الذي حصل بسبب حظوة زرياب بالأموال الطائلة التي تكاد تفوق الخيال من أجل صنعته في الغناء (انظر: تاريخ افتتاح الأندلس، ابن القوطية، ص63)، ولكن رواية (زرياب) حاولت أن تفسر جميع ذلك بأنه حقد وحسد لا غير (انظر: رواية زرياب، ص209-213)!

تعليق:

عبدالملك بن حبيب، هذا الفقيه العالم الذي يستنكر حظوة زرياب عند عبدالرحمن بن الحكم وفوزه بدنانيره، توفي هو وعبدالرحمن بن الحكم في عام 238، عبدالرحمن توفي قبل عبدالملك بن حبيب بنحو ستة أشهر، وقد توفي زرياب أيضاً في السنة نفسها قبل وفاة عبدالرحمن بن الحكم بأربعين يوماً، (سبحان الله)، وعند الله يلتقي الثلاثة في هذه الخصومة.

قال ابن حيان القرطبي (المتوفى 469هـ) في كتاب المقتبس (وهو كتاب آخر غير كتاب جذوة المقتبس الذي ألفه الحميدي، وسيأتي):

(علي بن نافع الملقب بزرياب، مولى المهدي العباسي، في ربيع الأول من سنة ثمان وثلاثين ومائتين، هلك قبل وفاة الأمير عبد الرحمن بأربعين يوماً)[26].

ولكن قبل الانتقال إلى الموضع الآتي يا أبا صالح، هل تريد أن تعرف مصدر كلام المَقّري عن عبدالملك بن حبيب؟ لقد اقتبسه من مصادر أخرى بواسطة عن محمد بن لبابة (توفي 314هـ)، لا يبعد أن يكون من بينها تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي (المتوفى 403هـ)، (كما سيأتي)، وتلك هي عادة المقّري في النقل عن كتب أندلسية عدة، مثل كتاب

(26) المقتبس، ابن حيان القرطبي (ص221).

المقتبس لابن حيان القرطبي، وجذوة المقتبس لابن فتوح الحَميدي (المتوفى 488هـ)، فهذه الكتب ينقل عنها المقري في نفح طيبه بواسطة، ثم يخلط في النقل ويحصل النقص والزيادة، لأن تلك الكتب لم تكن متوافرة لديه، ولأنه كان يتردد بين فاس وتلمسان، ومر بمدن مثل مراكش وتطوان، حتى رحل إلى المشرق، إلى مصر، فمكة، فبيت المقدس، وتردد بين بيت المقدس والحرمين الشريفين وسافر إلى دمشق، ثم عاد إلى مصر، وهذا الكتاب ألفه بعد عودته من دمشق إلى القاهرة، ولم تكن المصادر الأصلية لديه، بل كان ينقل بواسطات ولا يعزو إليها، (وهذا الكلام ذكر إحسان عباس نحواً منه مفصلاً في مقدمة تحقيقه لنفح الطيب).

قال إحسان عباس في تحقيقه:

(ولست أرى المقري مغالياً أو مترسماً لتقليد معين حين يعلن عن تهيبه من الإقدام على هذا التأليف؛ نعم كان المنهج أول الأمر واضحاً في مخيلته، ولكنه ما إن بدأ العمل حتى واجهته أكبر صعوبة يمكن أن تواجه من يتصدى لذلك، أعني ندرة المصادر الأندلسية والمغربية في المشرق. ولسنا ننكر أن الرجل كان ذا ذاكرة قوية، ولكن الذاكرة القوية لا يمكن أن تسعفه في كل وجه، ولو كانت كذلك حقاً لأنقذته من التكرار الكثير الذي يقع في صفحات متقاربات أحياناً، ثم هناك أشياء قد اختلت عن صورتها الأولى في

ذاكرته لأنه حفظها منذ عهد بعيد، وإذن فما العمل؟ **إن كل من يقرأ النفح يحس أن المقري لم يكن لديه نسخة من الذخيرة أو من المقتبس أو من زاد المسافر أو من الصلة لابن بشكوال، ولم يتح له أن يطلع على صلة الصلة والذيل والتكملة والحلة السيراء وتحفة القادم وجذوة المقتبس ومعجم أصحاب الصدفي... إلخ؛ وإذا رأيته يذكر هذه الكتب فهو إنما ينقل عنها بالواسطة.** ولهذا كله انقضّ على مصادر معينة فأسرف في النقل عنها لأنه لا يملك سواها، فقد وجد لديه من مؤلفات ابن سعيد المُغرب والقدح المعلى (أو اختصار القدح) ووجد للسان الدين نفسه الإحاطة وللفتح ابن خاقان المطمع والقلائد، **وكان بين يديه كتاب ابن الفرضي في العلماء والرواة** وكتاب المُطرب لابن دحية ودرر السمط وكتاب التكملة لابن الأبار، **وتاريخ ابن خلدون** ونيل الابتهاج لشيخه أحمد بابا، وأمعن في التفتيش عن كل ما دوّنه المشارقة من أخبار الأندلس، فاستعان بابن خلكان وبالخريدة وبكتاب بدائع البدائه لابن ظافر، ونقل أكثر ما فيها من حكايات وأخبار أندلسية، وكان مما جرّأه على الاضطلاع بذلك العبء، أنه كان قد نقل كثيراً من المادة اللازمة (أصالة أو استطراداً) في كتابه أزهار الرياض وروضة الآس، فارتاحت نفسه إلى إعادة جملة غير قليلة من مادة كتابيه هذين)[27].

(27) نفح الطيب، المقري التلمساني، تحقيق إحسان عباس، ج13/1و14.

نعود من استطرادنا يا أبا صالح إلى ما كنا فيه عن المَقري وما نقله عن عبدالملك بن حبيب، فنقول: الكلام الموجود في نفح الطيب عن عبدالملك بن حبيب (على سبيل المثال)، ونقله مؤلفه عن ابن لبابة، تجد نحوَه في كتاب جذوة المقتبس لابن فتوح الحميدي (أشرنا إليه آنفاً).

يقول الحَميدي: (عبد الملك بن حبيب بن سليمان بن هارون أبو مروان السلمي من موالى سليم، وقال ابن حارث: هو من أنفسهم، فقيه مشهور متصرف في فنون من الآداب وسائر المعاني، كثير الحديث والمشايخ، تفقه بالأندلس وسمع، ثم رحل فلقي أصحاب مالك وغيرهم، روى عن عبد الملك الماجشون، ومطرف، وإسماعيل بن أبي أويس، وأسد ابن موسى، وعبيد الله بن موسى الكوفي، وأصبغ بن الفرج، وعلي بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين، وجماعة كثيرة، ويقال إنه أدرك مالكاً في آخر عمره.

وقد وقع لنا عنه حديث رواه عن مالك بن أنس. حدثناه أبو بكر أحمد بن علي ابن ثابت الحافظ، قال: حدثني أبو القاسم عبد الله بن محمد الرفاعي، أخبرنا علي بن محمد ابن أحمد الفقيه بأصبهان، قال: حدثنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أسيد، حدثنا محمد بن زكريا الغلابي، حدثنا عبيد بن يحيى الإفريقي، حدثنا عبد الملك بن حبيب، عن مالك بن أنس، عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن، عن سعيد بن المسيب، قال: كان سليمان بن داود عليه السلام يركب

الريح من إصطخر فيتغدّى ببيت المقدس، ثم يعود فيتعشى بإصطخر.

وله في الفقه الكتاب الكبير المسمى الواضحة في الحديث والمسائل على أبواب الفقه، ومن أحاديثه غرائب كثيرة، وكانت وفاته بالأندلس في شهر رمضان سنة ثمان وثلاثين ومائتين. كذا قال يحيى بن عمر وغيره، وقيل مات في يوم السبت لاثني عشرة ليلة خلت من ذي الحجة سنة تسع وثلاثين ومائتين بقرطبة، وهو ابن ثلاث وخمسين سنة فيما يقال والله أعلم. روى عنه يوسف بن يحيى المغامي وغيره.

أخبرني أحمد بن عمر بن أنس قال: حدثني الحسين بن يعقوب، حدثنا سعيد ابن فحلون، حدثنا يوسف بن يحيى المغامي، قال: حدثنا عبد الملك بن حبيب السلمي قال: حدثني ابن عبد الحكم وغيره، عن ابن لهيعة، عن أبي الزبير، عن جابر ابن عبد الله: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: الجمعة في الجماعة فريضة على كل مسلم إلا على ستة: المملوك، والمسافر، والمريض، والمرأة، والكبير الفاني". قال ابن حبيب: وحدثنيه أيضاً أسد بن موسى، عن محمد بن الفضيل، عن محمد بن كعب القرظي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

أنشدني أبو محمد علي بن أحمد لعبد الملك بن حبيب:

صلاح أمري والذي أبتغي سهلٌ على الرحمن في قدرتِهْ

ألفٌ من الحُمْرِ وأقلِلْ بها لِعالمٍ أوفى على بُغْيتِهْ

زرياب قد يأخذها دفعةً وصنعتي أشرف من صنعتِهْ...)[28]

ملحوظة:

ترجمة زرياب ليست موجودة في جذوة المقتبس، ولكن هذا قد لا يعني أن الحَميدي لم يترجم له، لأنه ذكره في ترجمة عبدالرحمن بن الحكم، وذكر الأبيات التي كتبها عبدالملك بن حبيب في رثائه لحاله واغتياظه من حظوة المغنين عند الخلفاء وسوء حال العلماء عندهم، فترجمة زرياب ساقطة فيما يبدو لي من جذوة المقتبس المخطوط المطبوع، ومع ذلك، لدي احتمال ضعيف جداً، أن الحَميدي لم يورد ترجمة زرياب لأنه أفرد كتابه لعلماء الأندلس، فربما لم يعدّه منهم.

لكن لدي قرينة قوية أن ترجمة زرياب سقطت من جذوة المقتبس، وهي أن مؤلف جذوة المقتبس أورد التراجم بحسب الحروف، فسقط ما بين الذال (ذو النون) والزاي (زكريا)، وبهذا يكون باقي تراجم حرف الذال ساقطاً بالكامل، وكذلك تراجم حرف الراء سقطت كلها، وكذلك حرف الزاي إلى زكريا، وكما تعلم أنه وفقاً لترتيب حروف المعجم فإن (زرياب) موضعه قبل موضع (زكريا) فإن كان موجوداً في الأصل (وهذا أغلب الظن) فلا شك أنه سقط.

(28) جذوة المقتبس، محمد بن فتوح الحَميدي (ص282 وما بعدها).

وتوكيداً لما ذكرت لك يا أبا صالح من عناية الحميدي بذكر زرياب، انظر ما قاله الحميدي في جذوة المقتبس عند ترجمته لأسلم بن أحمد بن سعيد:

(أسلم بن أحمد بن سعيد بن القاضي أسلم بن عبد العزيز بن هاشم أبو الحسن، له أدب وشعر، من أهل بيت علم وجلالة، وله كتاب معروف في أغاني زرياب، وكان زرياب عند الملوك بالأندلس كالموصلي وغيره من المشهورين، برز في صناعته، وتقدم فيها، ونفق بها؛ وله طرائق تنسب إليه؛ وأسلم هذا هو الذي ذكرنا قصته مع أحمد بن كليب)[29].

وأما قصة أسلم المشار إليها آنفاً مع أحمد بن كليب، فهي قصة خبيثة قذرة، تدور عن عشق شاذ مخزٍ بينهما[30]، لكن المراد إيراد ما ذكره الحَميدي في جذوة المقتبس في الموضع المذكور، حيث قال:

(وأسلم هذا من بيت جليل، وهو صاحب الكتاب المشهور في أغاني زرياب، وكان شاعراً أديباً، وقد رأيت ابنه أبا الجعد)[31].

---

(29) السابق، ج172/1.
قلت: وأسلم، صاحب كتاب أغاني زرياب، توفي عام 395هـ، وخلطت رواية (زرياب) بينه وبين جده أسلم بن عبدالعزيز القاضي، ثم زعمت أن جده كانت تلميذاً لزرياب (انظر: رواية زرياب، ص217-221)، بيد أن أسلم بن عبدالعزيز توفي عام 319هـ، بعد نحو 80 عاماً من وفاة زرياب! (انظر: بغية الملتمس، أحمد بن يحيى بن عميرة، ج239/1و240)! (وسيأتي الحديث عن هذا مفصلاً).
(30) انظر: الوافي بالوفيات، خليل بن أيبك الصفدي، 196/7و197.
(31) جذوة المقتبس، محمد بن فتوح الحَميدي (ص54).

الموضع الثالث

يغنينا ما يرد في هذا الموضع من نفح الطيب عن زرياب عن كل بحث حكائي آخر، لأنه حوى ترجمة واسعة جداً لزرياب، ويبدو أنه نقله (أوله على الأقل) عن كتاب المقتبس لابن حيان القرطبي (سبق ذكره)، لكنه لا يغنينا من ناحية التحقيق، لأننا لا ننسى نهائياً يا أبا صالح ما أشرنا إليه من أن المقري ينقل بواسطة، فالمؤلف ليس لديه كتاب المقتبس الشهير، فضلاً عن كتاب (أغاني زرياب) المذكور قبل قليل.

إذا تبين ذلك فننتقل إلى الموضع الثالث:

قال المقري في ترجمته الموسعة لزرياب في نفح الطيب:

(ومن الواردين على الأندلس من المشرق رئيس المغنين أبو الحسن علي بن نافع، الملقب بزرياب، مولى أمير المؤمنين المهدي العباسي، قال في المقتبس: زرياب **لقب غلب عليه ببلاده من أجل سواد لونه**، مع فصاحة لسانه، وحلاوة شمائله، شُبه بطائر أسودَ غَردٍ عندهم، وكان شاعراً مطبوعاً، **وكان ابنه أحمد قد غلب عليه الشعر أيضاً، وكان من خبره في الوصول إلى الأندلس أنه كان تلميذاً لإسحاق الموصلي ببغداد، فتلقف من أغانيه استراقاً**، وهُدي من فهم الصناعة وصدق العقل مع طيب الصوت وصورة الطبع إلى ما فاق به إسحاق، وإسحاق لا يشعر بما فتح عليه، إلى أن جرى بالرشيد

مع إسحاق خبره المشهور في الاقتراح عليه بمغنٍ غريب مجيد للصنعة، لم يشتهر مكانه إليه، فذكر له تلميذه هذا، وقال: إنه مولىً لكم، وسمعت له نزعات حسنة، ونغمات رائقة ملتاطة بالنفس، إذا أنا وقفته على ما استغربَ منها، وهو من اختراعي واستنباط فكري، أحدس أن يكون له شأن، وقال الرشيد: هذا طلبتي، فأحضرنيه لعل حاجتي عنده، فأحضره، فلما كلمه الرشيد أعرب عن نفسه بأحسن منطق وأوجز خطاب، وسأله عن معرفته بالغناء، فقال: نعم أحسن منه ما يحسنه الناس، وأكثر ما أحسنه لا يحسنونه، مما لا يحسن إلا عندك ولا يُدخر إلا لك، فإن أذنت غنيتك ما لم تسمعه أذن قبلك، فأمر بإحضار عود أستاذه إسحاق، فلما أدني إليه وقف عن تناوله، وقال: **لي عود نحتُّه بيدي وأرهفته بإحكامي**، ولا أرتضي غيره، وهو بالباب، فليأذن لي أمير المؤمنين في استدعائه، فأمر بإدخاله إليه، فلما تأمله الرشيد وكان شبيهاً بالعود الذي دفعه قال له: ما منعك أن تستعمل عود أستاذك؟ فقال: إن كان مولاي يرغب في غناء أستاذي غنيته بعوده، وإن كان يرغب في غنائي فلا بد لي من عودي، فقال له: **ما أراهما إلا واحداً، فقال: صدقت يا مولاي، ولا يؤدي النظر غير ذلك**، ولكن عودي وإن كان في قدر جسم عوده ومن جنس خشبه فهو يقع من وزنه في الثلث أو نحوه، **وأوتاري من حرير لم يغزل بماء سخن يكسبها أناثة ورخاوة، وبمها ومثلثها اتخذتهما من مصران شبل أسد**، فلها في الترنم والصفاء والجهارة والحدة أضعاف ما لغيرها من مصران سائر الحيوان،

ولها من قوة الصبر على تأثير وقع المضارب المتعاورة بها ما ليس لغيرها، فاستبرع الرشيد وصفه وأمره بالغناء، فجَسّ، ثم اندفع فغناه:

يا أيّها الملكُ الميمون طائرُهُ هارونُ راح إليك الناسُ وابتكروا

فأتم النوبة، وطار الرشيد طرباً، وقال لإسحاق: واللّه لولا أني أعلم من صدقك لي على كتمانه إياك لما عنده وتصديقه لك من أنك لم تسمعه قبل لأنزلت بك العقوبة لتركك إعلامي بشأنه، فخذه إليك واعتن بشأنه، حتى أفرغ له، فإن لي فيه نظراً، فسُقط في يد إسحاق، وهاج به من داء الحسد ما غلب صبره، فخلا بزرياب وقال: يا علي، إن الحسد أقدم الأدواء وأدواها، والدنيا فتانة، والشركة في الصناعة عداوة، لا حيلة في حسمها وقد مكرت بي فيما انطويت عليه من إجادتك وعلو طبقتك، وقصدت منفعتك فإذا أنا قد أتيت نفسي من مأمنها بإدنائك، وعن قليل تسقط منزلتي، وترتقي أنت فوقي، وهذا ما لا أصاحبك عليه ولو أنك ولدي، ولولا رعيي لذمة تربيتك لما قدمت شيئاً على أن أذهب نفسك، يكون في ذلك ما كان، فتخيّر في ثنتين لا بد لك منهما: إما أن تذهب عني في الأرض العريضة لا أسمع لك خبراً بعد أن تعطيني على ذلك الأيمان الموثقة، وأنهضك لذلك بما أردت من مال وغيره، وإما أن تقيم على كرهي ورغمي مستهدفاً إلي، فخذ الآن حذرك مني، فلست واللّه أبقي عليك، ولا أدع اغتيالك باذلاً في ذلك بدني ومالي، فاقض

قضاءك. فخرج زرياب لوقته، وعلم قدرته على ما قال، واختار الفرار قدّامه، فأعانه إسحاق على ذلك سريعاً، وراش جناحه، فرحل عنه، ومضى يبغي مغرب الشمس، واستراح قلب إسحاق منه.

وتذكر الرشيد بعد فراغه من شغل كان منغمساً فيه، فأمر إسحاق بحضوره، فقال: ومن لي به يا أمير المؤمنين، ذاك غلام مجنون يزعم أن الجن تكلمه وتطارحه ما يزهى به من غنائه، فما يرى في الدنيا من يعدله، وما هو إلا أن أبطأت عليه جائزة أمير المؤمنين وترك استعادته، فقدّر التقصير به والتهوين بصناعته، فرحل مغاضباً ذاهباً على وجهه مستخفياً عني، وقد صنع الله تعالى في ذلك لأمير المؤمنين، فإنه كان به لمَمٌ يغشاه ويفرط خطبه، فيفزع من رآه، فسكن الرشيد إلى قول إسحاق، وقال: على ما كان به فقد فاتنا منه سرور كثير.

ومضى زرياب إلى المغرب فنسي بالمشرق خبره، إذ لم يكن اسمه شُهر هنالك شهرته بالصقع الذي قطنه ونزعت إليه نفسه وسمت به همته، فأم أمير الأندلس الحكم المباين لمواليه وخاطبه، وذكر له نزاعه إليه واختباره إياه، ويعلمه بمكانه من الصناعة التي ينتحلها، وسأله الإذن في الوصول إليه، فسرّ الحكم بكتابه وأظهر له من الرغبة فيه والتطلع إليه وإجمال الموعد ما تمناه، فسار زرياب نحوه بعياله وولده، وركب بحر الزقاق إلى الجزيرة الخضراء، فلم يزل بها حتى

توالت عليه الأخبار بوفاة الحكم، فهم بالرجوع إلى العدوة، فكان معه منصور اليهودي المغنّي رسول الحكم إليه، فثناه عن ذلك ورغّبه في قصد القائم مقام الحكم، وهو عبد الرحمن ولده، وكتب إليه بخبر زرياب، فجاءه كتاب عبد الرحمن يذكر تطلعه إليه والسرور بقدومه عليه، وكتب إلى عماله على البلاد أن يحسنوا إليه ويوصلوه إلى قرطبة، وأمر خصياً من أكابر خصيانه أن يتلقاه ببغال ذكور وإناث وآلات حسنة، فدخل هو وأهله البلد ليلاً صيانةً للحُرم، وأنزله في دار من أحسن الدور، وحمل إليها جميع ما يحتاج إليه، وخلع عليه، وبعد ثلاثة أيام استدعاه، وكتب له في كل شهر بمائتي دينار راتباً، وأن يجرى على بنيه الذين قدموا معه - وكانوا أربعة: عبد الرحمن، وجعفر، وعبيد الله، ويحيى - عشرون ديناراً لكل واحد منهم كل شهر، وأن يجرى على زرياب من المعروف العام ثلاثة آلاف دينار، منها لكل عيد ألف دينار، ولكل مهرجان ونوروز خمسمائة دينار، وأن يقطع له من الطعام العام ثلاثمائة مدّ ثلثاها شعير وثلثها قمح، وأقطعه من الدور والمستغلات بقرطبة وبساتينها ومن الضياع ما يقوّم بأربعين ألف دينار. فلما قضى له سؤله وأنجز موعوده وعلم أن قد أرضاه وملك نفسه استدعاه، فبدأ بمجالسته على النبيذ وسماع غنائه، فما هو إلا أن سمعه فاستهوله واطرح كل غناء سواه، وأحبه حباً شديداً وقدمه على جميع المغنين، وكان لما خلا به أكرمه غاية الإكرام وأدنى منزلته وبسط أمله، وذاكره في أحوال الملوك وسير الخلفاء

ونوادر العلماء، فحرك منه بحراً زخر عليه مده، فأعجب الأمير به وراقه ما أورده، وحضر وقت الطعام فشرفه بالأكل معه هو وأكابر ولده، ثم أمر كاتبه بأن يعقد له صكاً بما ذكرناه آنفاً، ولما ملك قلبه واستولى عليه حبه فتح له باباً خاصاً يستدعيه منه متى أراده.

وذكر أن زرياباً ادعى أن الجن كانت تعلمه كل ليلة ما بين نوبة إلى صوت واحد، كان يهب من نومه سريعاً فيدعو بجاريتيه غزلان وهنيدة، فتأخذان عودهما، ويأخذ هو عوده، فيطارحهما ليلته ويكتب الشعر ثم يعود عجلاً إلى مضجعه، وكذلك يحكى عن إبراهيم الموصلي في لحنه البديع المعروف بالماخوري أن الجن طارحته إياه، والله تعالى أعلم بحقيقة ذلك.

وزاد زرياب بالأندلس في أوتار عوده وتراً خامساً اختراعاً منه، إذ لم يزل العود ذا أربعة أوتار على الصنعة القديمة التي قوبلت بها الطبائع الأربع، **فزاد عليها وتراً خامساً** أحمر متوسطاً، فاكتسب به عوده ألطف معنى وأكمل فائدة، وذلك أن الزير صُبغ أصفر اللون، وجُعل في العود بمنزلة الصفراء من الجسد، وصُبغ الوتر الثاني بعده أحمر، وهو من العود مكان الدم من الجسد، وهو في الغلظ ضعف الزير، ولذلك سمي مثنى، وصبغ الوتر الرابع أسود، وجعل من العود مكان السوداء من الجسد، وسمي البم، وهو أعلى أوتار العود، وهو ضعف المثلث الذي عُطل من الصبغ وترك أبيض اللون،

وهو من العود بمنزلة البلغم من الجسد، وجُعل ضعفَ المثنى في الغلظ، ولذلك سمي المثلث، فهذه الأربعة من الأوتار مقابلة للطبائع الأربع تقضي طبائعها بالاعتدال، فالبمّ حار يابس يقابل المثنى وهو حار رطب وعليه تسويته، والزير حار يابس يقابل المثلث وهو حار رطب، قوبل كل طبع بضده حتى اعتدل واستوى كاستواء الجسم بأخلاطه، إلا أنه عُطل من النفس، والنفس مقرونة بالدم، فأضاف زرياب من أجل ذلك إلى الوتر الأوسط الدموي **هذا الوتر الخامس الأحمر الذي اخترعه بالأندلس**، ووضعه تحت المثلث وفوق المثنى، فكمل في عوده قوى الطبائع الأربع، وقام الخامس المزيد مقام النفس في الجسد.

وهو الذي اخترع بالأندلس مضراب العود من قوادم النسر، معتاضاً به من مرهف الخشب، فأبرع في ذلك للطف قشر الريشة ونقائه وخفته على الأصابع وطول سلامة الوتر على كثرة ملازمته إياه.

وكان زرياب عالماً بالنجوم وقسمة الأقاليم السبعة واختلاف طبائعها وأهويتها وتشعب بحارها وتصنيف بلادها وسكانها، مع ما سنح له من فك كتاب الموسيقى، مع حفظه لعشرة آلاف مقطوعة من الأغاني بألحانها، وهذا العدد من الألحان غاية ما ذكره بطليموس واضع هذه العلوم ومؤلفها.

وكان زرياب قد جمع إلى خصاله هذه الاشتراك في كثير من ضروب الظرف وفنون الأدب، ولطف المعاشرة، وحوى من

آداب المجالسة وطيب المحادثة ومهارة الخدمة الملوكية ما لم يُجده أحد من أهل صناعته، حتى اتخذه ملوك أهل الأندلس وخواصهم قدوة فيما سنه لهم من آدابه، واستحسنه من أطعمته، فصار إلى آخر أيام أهل الأندلس منسوباً إليه معلوماً به: فمن ذلك أنه دخل إلى الأندلس وجميع من فيها من رجل أو امرأة يرسل جمّته مفروقاً وسط الجبين عاماً للصدغين والحاجبين، فلما عاين ذوو التحصيل تحذيفه هو وولده ونساؤه لشعورهم، وتقصيرها دون جباههم، وتسويتها مع حواجبهم، وتدويرها إلى آذانهم، ولإسبالها إلى أصداغهم - حسبما عليه اليوم الخدم الخصية والجواري- هوت إليه أفئدتهم، واستحسنوه. ومما سنه استعمال المرتك المتخذ من المرداسنج لطرد ريح الصنان من مغابنهم، ولا شيء يقوم مقامه، وكانت ملوك الأندلس تستعمل قبلة ذرور الورد وزهر الريحان وما شاكل ذلك من ذوات القبض والبرد، فكانوا لا تسلم ثيابهم من وضر، فدلهم على تصعيدها بالملح، وتبييض لونها، فلما جربوه أحمدوه جداً. وهو أول من اجتنى بَقلة الهليون المسماة بلسانهم الإسفراج، ولم يكن أهل الأندلس يعرفونها قبله. ومما اخترعوه من الطبيخ اللون المسمى عندهم بالتفايا، وهو مصطنع بماء الكزبرة الرطبة محلى بالسنبوسق والكباب، ويليه عندهم لون التقلية المنسوبة إلى زرياب.

ومما أخذه عنه الناس بالأندلس تفضيله آنية الزجاج الرفيع على آنية الذهب والفضة، وإيثاره فرش أنطاع الأديم اللينة

الناعمة على ملاحف الكتان، واختياره سفر الأديم لتقديم الطعام فيها على الموائد الخشبية إذ الوضر يزول عن الأديم بأقل مسحة، ولبسه كل صنف من الثياب في زمانه الذي يليق به، فإنه رأى أن يكون ابتداء الناس للباس البياض وخلعهم للملون من يوم مهرجان أهل البلد المسمى عندهم بالعنصرة الكائن في ست بقين من شهر يونية الشمسي من شهورهم الرومية، فيلبسونه إلى أول شهر أكتوبر الشمسي منها ثلاثة أشهر متوالية، ويلبسون بقية السنة الثياب الملونة، ورأى أن يلبسوا في الفصل الذي بين الحر والبرد المسمى عندهم الربيع من مصبغهم جباب الخز والملحم والمحرر والدراريع التي لا بطائن لها؛ لقربها من لطف ثياب البياض الظهائر التي ينتقلون إليها لخفتها وشبهها بالمحاشي، ثياب العامة، وكذا رأى أن يلبسوا في آخر الصيف وعند أول الخريف المحاشي المروية والثياب المصمتة وما شاكلها من خفائف الثياب الملونة ذوات الحشو والبطائن الكثيفة، وذلك عند قرس البرد في الغدوات، إلى أن يقوى البرد فينتقلوا إلى أثخن منها من الملونات، ويستظهرون من تحتها إذا احتاجوا إلى صنوف الفراء.

واستمر بالأندلس أن كل من افتتح الغناء فيبدأ بالنشيد أول شدوه بأي نقر كان، ويأتي إثره بالبسيط، ويختم بالمحركات والأهزاج تبعاً لمراسم زرياب.

وكان إذا تناول الإلقاء على تلميذ يعلمه أمَرَه بالقعود على الوساد المدور المعروف بالمسورة، وأن يشد صوته جداً إذا كان قوي الصوت، فإن كان ليّنه أمره أن يشد على بطنه عمامة، فإن ذلك مما يقوي الصوت، ولا يجد متسعاً في الجوف عند الخروج على الفم، فإن كان ألصّ الأضراس لا يقدر على أن يفتح فاه، أو كانت عادته زمّ أسنانه عند النطق، راضه بأن يدخل في فيه قطعة خشب عرضها ثلاث أصابع يبيتها في فمه ليالي حتى ينفرج فكاه، وكان إذا أراد أن يختبر المطبوع الصوت المراد تعليمه من غير المطبوع أمره أن يصيح بأقوى صوته: يا حجام، أو يصيح: آه، ويمد بها صوته، فإن سمع صوته بهما صافياً ندياً قوياً مؤدياً لا يعتريه غنة ولا حبسة ولا ضيق نفس عرف أن سوف ينجب وأشار بتعليمه، وإن وجده خلاف ذلك أبعده.

وكان له من ذكور الولد ثمانية: عبد الرحمن وعبيد الله ويحيى وجعفر ومحمد وقاسم وأحمد وحسن. ومن الإناث ثنتان: علية وحمدونة. وكلهم غنى ومارس الصناعة، واختلفت بهم الطبقة، **فكان أعلاهم عبد الله ويتلوه عبد الرحمن، لكنه ابتلي من فرط التيه وشدة الزهو وكثرة العجب بغنائه والذهاب بنفسه بما لم يكن له شبه فيه، وقلما يسلم مجلس حضوره من كدر يحدثه، ولا يزال يجترئ على الملوك، ويستخف بالعظماء، ولقد حمله سخفه على أن يحضر يوماً مجلس بعض الأكابر الأعاظم في أنس قد طاب به سروره، وكان صاحب قنص تغلب عليه لذته، فاستدعى**

بازياً كان كلفاً به كثير التذكر له، فجعل يمسح أعطافه ويعدل قوادمه ويرتاح لنشاطه، فسأله عبد الرحمن أن يهبه له، فاستحيا من رده وأعطاه إياه مع ضنه به، فدفعه عبد الرحمن إلى غلامه ليعجل به إلى منزله، وأسر إليه فيه بسر لم يطلع عليه، فمضى لشأنه، ولم يلبث أن جاءه بطيفورية مغطاة مكرمة بطابع مختوم عليها من فضة، فإذا به لون مصوص قد اتخذ من البازي بعد ذبحه على ما حده لأهله، وذهب إلى الانتقال عليه في شرابه، وقال لصاحب المجلس: شاركني في نقلي هذا فإنه شريف المركب بديع الصنعة، فلما رآه الرجل أنكر صفته وعاب لحمه، وسأله عنه، فقال: هو البازي الذي كنت تعظم قدره، ولا تصبر عنه، قد صيرته إلى ما ترى، فغضب صاحب المنزل حتى ربا في أثوابه وفارقه حلمه وقال له: قد كان والله أيها الكلب السفيه على ما قدرته، وما اقتديت فيه إلا بكبار الناس المؤثرين لمثله، وما أسعفتك به إلا معظماً من قدرك ما صغرت من قدري، وأظهرت من هوان السنة عليك باستحلالك لسباع الطير المنهي عنها، ولا أدع والله الآن تأديبك إذ أهملك أبوك معلم الناس المروءة، ودعا له بالسوط وأمر بنزع قلنسوته وساط هامته مائة سوط، فاستحسن جميع الناس فعله وأبدوا الشماتة به.

وكان محمد منهم مؤنثاً، وكان قاسمهم أحذقهم غناء مع تجويده، وتزوج الوزير هشام بن عبد العزيز حمدونة.

وذكر الشاعر أن أول من دخل الأندلس من المغنين علون وزرقون، دخلا في أيام الحكم بن هشام، فنفقا عليه، وكانا محسنين، لكن غناؤهما ذهب لغلبة غناء زرياب عليه.

وقال عبد الرحمن بن الشمر منجم الأمير عبد الرحمن ونديمه في زرياب:

يا علـيّ بن نـافعٍ يــا علـيّ أنـت أنت المهذّب اللوذعيُّ
أنت في الأصل حين يُسأل عنه هاشميّ وفي الهوى عبشميُّ

وقال ابن سعيد: وأنشد لزرياب والدي في معجمه:

عُلّقتها ريحانةً هـيفاء عـاطرةً نضيرَه
بين السمينة والهزيـ ـلة والطويلة والقصيرَة
للّه أيــامٌ لــنـا سلفت على دير المطيـرَة
لا عـيـبَ فيها للمتيـ ـيم غير أن كانت يسيرَة

انتهى.

وكان لزرياب جارية اسمها متعة، أدّبها وعلّمها أحسن أغانيه حتى شبّت، وكانت رائعة الجمال، وتصرفت بين يدي الأمير عبد الرحمن بن الحكم تغنيه مرة وتسقيه أخرى، فلما فطنت لإعجابه بها أبدت له دلائل الرغبة، فأبى إلا التستر، فغنته بهذه الأبيات، وهي لها في ظن بعض الحفاظ:

يا من يغطّي هـــــواهُ | من ذا يغطّي النهارا
قـد كنتُ أملك قلبي | حتى علقتُ فطارا
يـا ويـلـتـا أتـــــــراهُ | لي كان، أو مستعارا
يـا بــأبي قــرشــــــيٌّ | خلعت فيه العذارا

فلما انكشفَ لزرياب أمرُها أهداها إليه فحظيتْ عنده.

وكانت حمدونة بنت زرياب متقدمة في أهل بيتها، محسنة لصناعتها، متقدمة على أختها علية، وهي زوجة الوزير هاشم بن عبد العزيز كما مر، وطال عمر علية بعد أختها حمدونة، ولم يبق من أهل بيتها غيرها، فافتقر الناس إليها، وحملوا عنها.

وكانت مصابيح جارية الكاتب أبي حفص عمر بن قلهيل أخذت عن زرياب الغناء، وكانت غاية في الإحسان والنبل وطيب الصوت، وفيها يقول ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد، وكتب به إلى مولاها:

يا من يضنّ بصوت الطائر الغردِ | ما كنت أحسب هذا الضنّ من أحدِ
لو أن أسماع أهل الأرض قاطبةً | أصغت إلى الصوت لم ينقص ولم يزدِ

من أبيات، فخرج حافياً لما وقف على ذلك، وأدخله إلى مجلسه، وتمتع من سماعها، رحم اللّه تعالى الجميع.

وقال علّوية: كنت مع المأمون لما قدم الشام، فدخلنا دمشق، وجعلنا نطوف فيها على قصور بني أمية، فدخلنا قصراً

مفروشاً بالرخام الأخضر، وفيه بركة يدخلها الماء ويخرج منها فيسقي بستاناً، وفي القصر من الأطيار ما يغني صوته عن العود والمزمار، فاستحسن المأمون ما رأى، وعزم على الصبوح، فدعا بالطعام فأكلنا وشربنا، ثم قال لي: غن بأطيب صوت وأطربه، فلم يمر على خاطري غير هذا الصوت:

لو كان حولي بنو أميّة لم ... ينطق رجال أراهمُ نطقوا

فنظر إليّ مغضباً، وقال: عليك لعنة الله وعلى بني أمية، فعلمت أني قد أخطأت، فجعلت أعتذر من هفوتي، وقلت: يا أمير المؤمنين، أتلومني أن أذكر مواليّ بني أمية، وهذا زرياب مولاك عندهم بالأندلس، يركب في أكثر من مائة مملوك وفي ملكه ثلاثمائة ألف دينار دون الضياع، وإني عندكم أموت جوعاً، وفي الحكاية طول واختلاف، ومحل الحاجة منها ما يتعلق بزرياب، رحم الله تعالى الجميع.

وذكرها الرقيق في كتاب معاقرة الشراب على غير هذا الوجه، ونصه: وركب المأمون يوماً من دمشق يريد جبل الثلج، فمر ببركة عظيمة من برك بني أمية، وعلى جانبها أربع سروات، وكان الماء يدخل سيحاً، فاستحسن المأمون الموضع، ودعا بالطعام والشراب، وذكر بني أمية، فوضع منهم وتنقصهم، فأخذ علُّوية العود واندفع يغني:

أرى أسرتي في كلّ يومٍ وليلةٍ يروحُ بهم داعي المنون ويغتدي
أولئك قومٌ بعد عزّ وثروة تفانوا فإلا أذرف العين أكمدِ

فضرب المأمون بكأسه الأرض، وقال لعلوية: يا ابن الفاعلة، لم يكن لك وقت تذكر مواليك فيه إلا هذا الوقت؟ فقال: مولاكم زرياب عند مواليّ بالأندلس يركب في مائة غلام، وأنا عندكم بهذه الحالة! فغضب عليه نحو شهر، ثم رضي عنه، انتهى.

ونحوه لابن الرقيق في كتابه قطب السرور، وقال في آخر الحكاية: وأنا عندكم أموت من الجوع، ثم قال: وزرياب مولى المهدي، ووصل إلى بني أمية بالأندلس فعلت حاله، حتى كان كما قال علوية، انتهى.

ولما غنى زرياب بقوله:

ولو لم يشقني الظاعنون لشاقني حمام تداعت في الديار وَقوعُ

تداعين فاستبكين من كان ذا هوى نوائح ما تجري لهنّ دموعُ

ذيّلها عباس بن فرناس يمدح بعض الرؤساء بديهة فقال:

شددت بمحمودٍ يداً حين خانها زمانٌ لأسباب الرجاء قطوعُ

بنى لمساعي الجود والمجد قبلةً إليها جميع الأجودين ركوعُ

وكان محمود جواداً، فقال له: يا أبا القاسم، أعز ما يحضرني من مالي القبة، يعني قبة قامت عليه بخمسمائة دينار، وهي

لك بما فيها مع كسوتي هذه، ونكون في ضيافتك بقية يومنا، ودعا بكسوة فلبسها، ودفع إليه الكسوة)[32].

ملحوظة:

كتاب ابن حيان، أعني المقتبس، الذي ينقل المقّري عنه سقط منه كثير، ولم يعثر منه إلا على أربع قطع مخطوطات، الأولى منها عثر عليها المستشرق الفرنسي بروفنسال، ونشرها، والثانية عثر عليها راهب أسباني اسمه الأب ملنشور أنطونيا ونشرها في باريس، والثالثة نشرها الأستاذ عبدالرحمن حي في بيروت، ثم عثر الدكتور محمود علي مكي على قطعة مخطوطة أخرى مما لم ينشر قبل، تنتظم أحداث السنوات الأخيرة من إمارة عبدالرحمن بن الحكم، التي عاش فيها عبدالملك بن حبيب والحكم وزرياب، ونشرتها لجنة إحياء التراث الإسلامي بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية التابع لوزارة الأوقاف المصرية بتحقيق محمود مكي عام 1994م. والكلام أعلاه عن مخطوطات الكتاب نقلته نقلا شبه حرفي من مقدمة تحقيق الكتاب[33].

فالذي يبدو أن الموضع الذي نقل عنه المقّري من المقتبس سيرة زرياب مفقود، ولا ننسى هنا أيضاً أنّ محمود مكي لم يشر إلى ما نبه إليه إحسان عباس، وهو أن كتاب المقتبس لم

(32) نفح الطيب، المقّري التلمساني، ج122/3 وما بعدها من صفحات.
(33) انظر: المقتبس، ابن حيان القرطبي، تحقيق الدكتور محمود علي مكي (ص118 وما بعدها).

يكن متوافراً لدى المقّري أيضاً عند كتابته لنفح الطيب (وسبق بيان هذا).

والآن يا أبا صالح، نستعرض بعض ما ورد في المقتبس (المعثور عليه والمطبوع) من سيرة زرياب:

يقول ابن حيان:

(وقال يحيى الغزال عند ذكر الناس لإنزال السلطان زرياباً مغنّيَهُ في مُنية نصر الخصي، أثيره، بعد موته، يذكر تقلب الدنيا بأهلها:

ذكر الناسُ (...) نصر لزريا ب وأهلٌ لنيلهـا زريـابُ
هكذا قدّر الإله وقد تجـ ـري بما لا تظنّه الأسبابُ)[34]

وساق بقية الأبيات، ثم ذكر بعدها قصة مهلك الخصيّ نصر المذكور الذي حل محله زرياب في مُنيته (كان ذلك عام 233هـ، وهي قصة مخزية أيضاً تروي تحالف نصر الخصي مع الجارية طروب لقتل أمير الدولة بالسمّ المخلوط بالدواء، فلما علم بذلك عبدالرحمن أجبره على شرب السم فمات منه، والمقصود بالمُنية ما يشبه الحديقة والمنتجع).

(34) المقتبس، ابن حيان القرطبي، تحقيق الدكتور محمود علي مكي (ص154).

والمقصود هنا الانتقال إلى ما ذكره محمود مكي في حاشية ما حققه من المقتبس، برقم (58)، التي أوردها تعليقاً على هذا الموضع، فقال:

(زرياب هو أبو الحسن علي بن نافع، مولى أمير المؤمنين المهدي العباسي، وتلميذ المغنيين المشهورين إبراهيم الموصلي وابنه إسحاق، قدم إلى الأندلس سنة 206 (821) فقربه عبدالرحمن بن الحكم إليه، وارتفع مكانه عنده، وأورث صناعة الغناء بالأندلس بنيه وعدداً كبيراً من تلاميذه وقيانه، كما أدخل إلى هذه البلاد جملة من التقاليد الحضارية المشرقية. وتوفي زرياب سنة 238 (852) قبل وفاة الأمير بأربعين يوماً. انظر في ترجمته وأخباره المقّري: 322/1؛ 215/2؛ 27/3؛ 117/4-129؛ 149/5 (**ومعظم أخبار المقري مما نقله عن ابن حيان**)[35].

هذا المقطع المنقول من حواشي مكي يبين لك أنه ربما ظنّ أن المقّري نقل مباشرة من المقتبس، وليس كذلك على الأرجح، وهو ما حققه إحسان عباس، وأشرنا إليه.

ملحوظة أخرى:

عطفاً على ما ذكره المقري من توقيت هجرة زرياب من بغداد إلى قرطبة، والأموال الطائلة التي حصل عليها، وقبل ذلك ما ورد في ترجمة عبد الملك بن حبيب، وغير ذلك- ذكر

(35) المقتبس، ابن حيان القرطبي، تحقيق الدكتور محمود علي مكي (ص254).

ابن القوطية (المتوفى 367) في كتابه تاريخ افتتاح الأندلس، وهو مصدر أندلسي قريب من عهد زرياب، ما يعد – على قِصَره- مرجعاً مهماً في هذا الشأن.

يقول ابن القوطية:

(وقدم زرياب على عبد الرحمان بن الحكم، رحمه الله، وكان بالمحل القريب من الأمين بن هارون بن محمد، وكان المأمون الوالي بعد الأمين، فعدّ عليه أشياء، فلما خُذل الأمين فرّ زرياب إلى الأندلس، فحلّ من عبد الرحمان بكل محل، وكان أهلاً لذلك، في أدبه وروايته وتقدمه في الصناعة التي كانت بيده، فمن أخباره أنه غناه يوماً صوتاً استحسنه، فقال يأمر الخزّان أن يدفعوا له ثلاثين ألف دينار، فأتاهم صاحب الرسائل بالعهد، وكان الخزّان يومئذ المذكورون، قبل التقارع على الحجابة، غيرَ سفيان بن عبد ربه الذي خرج إلى الحجابة. فنظر الخزّان بعضهم إلى بعض، فقال لهم موسى بن حدير، وكان شيخهم: قولوا. فقال أصحابه: ما لنا قول لصاحب الرسائل، نحن وإن كنّا خُزّان الأمير أبقاه الله، فنحن خُزّان مال المسلمين، نجبي أموالهم وننفقها في مصالحهم، ولا والله ما ينفذ هذا، ولا متّا من يرضى أن يرى هذا في صحيفته غداً، أن نأخذ ثلاثين ألفاً من أموال المسلمين وندفعها إلى مغنّ في صوتٍ غناه! يدفع إليه الأمير أبقاه الله ذلك مما عنده.

فانصرف صاحب الرسائل، وقال للخليفة الخارجُ بالصك: نافقَ الخرّان، وقال مثل ذلك الأمين، فقال زرياب: ما هذه طاعة! فقال عبد الرحمان بن الحكم: هذه الطاعة، ولأوليتهم الوزارة على هذا الأمر، وصدقوا فيما قالوا، ثم أمر بدفعه إلى زرياب مما عنده)[36].

(36) تاريخ افتتاح الأندلس، أبو بكر بن القوطية (ص62 و63).
قلت: ويدفع كلام ابن القوطية هذا ما زعمه مقبول العلوي في حوار عبدالله الزماي معه في صحيفة الرياض، بتاريخ 15 يوليو 2015، إذ يقول: (هذا سؤال مهم جدا واشغلني كثيرا أثناء كتابة الرواية. بعض المراجع تقول انه نُفي مباشرة بعد خلافه الشهير مع أستاذه الموصلي ولكن هذه الجزئية ينفيها التسلسل الزمني للتاريخ، فالخليفة هارون الرشيد مات في 193هـ وزرياب دخل إلى أرض الأندلس في 206 هـ تقريباً. إذاً نحن بصدد حوالي ثلاث عشرة سنة مّرت، فأين كان زرياب حينها؟ هل من المعقول القول انه أخذ في طريق المنفى ثلاث عشرة سنة؟ اعتقد منطقياً أن من المستحيل حدوث هذا. وباستنتاج شخصي أعتقد أن زرياب لم يغادر بغداد مباشرة فعند وفاة الرشيد وتسّنم الأمين الخلافة وما حدث من خلاف مع أخيه المأمون يؤكد أن زرياب لم يسلك طريق المنفى إلا في بدايات خلافة المأمون). انتهى كلامه. قلت: وهذا الإشكال حلّه ابن القوطية قبل أكثر من ألف عام، كما أن الاستشكال الذي تظاهر العلوي بأنه أشغله استشكله قبله خير الدين الزركلي في هوامشه (انظر: الأعلام، الزركلي، ج28/5)، وعنه أيضاً كتب الدكتور هاني أبوالرب في بحث له بعنوان (زرياب وأثره في الحياة الاجتماعية والفنية في الأندلس) منشور على الشبكة (انظر: الحاشية 22و23 من البحث على الشبكة).
وما ذكره ابن القوطية ينفي تماماً ما ذهبت إليه رواية زرياب (ص209-113) من أن أمر استنكار الإسراف في النفقات من بيت المال على زرياب كان حسداً من خصومه من الفقهاء والشعراء ورجال الدولة، إذ إن الأمير عبدالرحمن بن الحكم أقرّ استنكار خُزّانه هذا السرف والفساد، وأجاز تصرفهم، ووعدهم بترقية مناصبهم، ولم يعبأ بما ادعاه زرياب من أنهم لم يطيعوا أمر الأمير.

الموضع الرابع

قال المقري في نفح الطيب:

(وغنى أبو الحسن زرياب يوماً بين يدي الأمير عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل بهذين البيتين، وهما لأبي العتاهية:

قالت ظلومُ سميّة الظُّلمِ مالي رأيتك ناحل الجسمِ
يا من رمى قلبي فأقصَدَهُ أنت الخبير بموقع السهمِ

فقال عبد الرحمن: هذان البيتان منقطعان، فلو كان بينهما ما يصلهما لكان أبدع، فصنع عبيد الله بن فرناس[37] بديهاً:

فأجبتها والدمع منحدرٌ مثل الجمان وَهَى من النّظمِ

فاستحسنه، وأمر له بجائزة)[38].

تعليق:

هذه القصة أوردها الأديب المصري شهاب الدين النويري (المتوفى 733هـ) في نهاية الأرب، ولعل المقري نقلها منه بطريقته المذكورة في النقل، أو من مصدر مشرقي، لأنها مشتهرة.

(37) كذا ورد في نفح الطيب، وذكر النويري أنه عبيد الله بن قزمان وليس ابن فرناس، فربما كان كلاهماً وهماً أو تصحيفاً (وسيأتي قريباً).
(38) نفح الطيب، المقري التلمساني، ج615/3.

قال النويري في حديثه عن وفاة عبدالرحمن بن الحكم:

(كانت وفاته في ليلة الخميس لثلاث خلون من شهر ربيع الأول سنة ثمان وثلاثين ومائتين، وقيل في شهر ربيع الآخر منها.

وكان مولده في شعبان سنة ستّ وسبعين ومائة. فكان عمره اثنتين وستين سنة ومدة ولايته إحدى وثلاثين سنة وشهرين وستة أيام.

وكان أسمر طويلاً أغرّ أقنى عظيم الجبهة يخضب بالحناء. وكان له من صلبه من الأولاد الذكور والإناث سبعة وثمانون ولداً، منهم خمسة وأربعون ذكراً. وكان عالما أديباً شاعراً، يعرف علوم الفلاسفة. وفى أيامه دخل زرياب المغنّى إلى الأندلس فحضر يوما عند عبد الرحمن وغنّى وعبيد اللّه بن قزمان الشاعر حاضر، فقال زرياب:

قالت ظلومُ سميّة الظُّلمِ مالي رأيتك ناحل الجسمِ
يا من رمى قلبي فأقصَدَهُ أنت الخبير بموقع السهمِ

فقال عبد الرحمن: البيت الثاني منقطع عن الأول غير متصل به! فقال ابن قزمان بديهة بعد البيت الأول:

فأجبتها والدمع منحدرٌ مثل الجمان زها من النّظمِ

فكساه عبد الرحمن وحباه)[39].

---

(39) نهاية الأرب، النويري، ج382/6. وربما كان هذا وهماً أو تصحيفاً، لأن الذي في كتاب طبقات النحويين واللغويين أن عباس بن فرناس هو من كان يجيز مثل هذه الإجازات بالبديهة، (انظر: طبقات النحويين واللغويين، الزبيدي الإشبيلي، ص268و269)، وسبق ذلك معنا آنفاً، والله أعلم.

تذييل

وأما ما نبهتني إليه يا أبا صالح، وهو ما ذكره ابن عبد ربه (المتوفى 328هـ) في العقد الفريد، من قصة دخول زرياب على بني الأغلب في القيروان وتهديد الأمير زيادة اللّه بن إبراهيم بن الأغلب التميمي إياه بالقتل بسبب إساءته اختيار غنائه بين يديه، فهذه القصة لم أجدها عند المقرّي، وها هو ذا نصها:

(وكان لإبراهيم الموصلي عبد أسود يقال له زرياب، وكان مطبوعاً على الغناء، علّمه إبراهيم، وكان ربما حضر به مجلس الرشيد يغني فيه، ثم إنه انتقل إلى القيروان، إلى بني الأغلب، فدخل على زيادة اللّه بن الأغلب[40]، فغناه بأبيات عنترة الفوارس، حيث يقول:

فان تك أمّي غرابيّةً — مِنَ ابناءِ حامٍ بها عِبتني
فإني لطيف ببيض الظُّبا — وسمر العوالي إذا جئتني
ولولا فرارُكَ يومَ الوغى — لقدتك في الحرب أو قدتني

فغضب زيادة اللّه، فأمر بصفع قفاه وإخراجه، وقال له: إن وُجدت في شيء من بلدي بعد ثلاثة أيام ضربت عنقك! فجاز

---

(40) هو زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب التميمي، الأمير الثالث في دولة بني الأغلب في القيروان، ولد عام 172هـ، وتولى الإمارة بعد وفاة أخيه عبد الله عام 201هـ، حتى توفي عام 223هـ. (انظر: الأعلام، الزركلي، ج56/3).

البحر إلى الأندلس، فكان عند الأمير عبد الرحمن بن الحكم)[41].

وبعدُ يا أبا صالح، وبعد هذه الجولة، وبعد أن يدرك القارئ كل هذه الأمور، عن وضع الموسيقى في ذلك الحين، ونظرة المؤرخين والمفكرين إليها، وحقيقة المصادر التي نقلت منها قصة زرياب، الذي يحمل وزر تأسيس أول (ستار أكاديمي) في الإسلام، وأول من نقل مفهوم الموضة والأزياء إلى بلاد الأندلس، وحصل بسببه ما حصل من السرف في هدر بيت مال

---

(41) العقد الفريد، ابن عبد ربه، ج37/7.
قلت: تخبطت رواية (زرياب) تخبطاً شديداً فيما يتعلق بسيرة بطلها مع بني الأغلب في القيروان، أثناء سفره من بغداد إلى الأندلس، فأول ما ظهر من ذلك أنها زعمت أن قدوم زرياب كان وقت ثورة زياد بن سهل المعروف بابن الصقلبية (انظر: رواية زرياب، ص151و153و163)! وهذا خطأ واضح، إذ إن ثورة ابن الصقلبية وزحفه إلى باجة كانت عام 207هـ. (انظر: البيان المغرب، ابن عذاري المراكشي، ج97/1)، وذلك بعد مرور عام على وصول زرياب إلى الأندلس (انظر: حوار عبدالله الزماي للعلوي حول رواية (زرياب)، في صحيفة الرياض، بتاريخ 15 يوليو 2015، وفيه يقرّ بأن وصول زرياب للأندلس عام 206هـ تقريباً).
كما أخطأت الرواية خطأ أشدّ حين زعمت أن وجود زرياب عند بني الأغلب في القيروان زامنَ طلب الخليفة المأمون من زيادة الله الدعاء لأميره على مصر عبدالله بن طاهر على منابر القيروان، وأن ذلك كان من إرهاصات طرد زيادة الله لزرياب (انظر: رواية زرياب، ص179)، والحق هو أن عبدالله بن طاهر إنما تولى إمارة مصر عام 211هـ. (انظر: الأعلام، الزركلي، ج93/4)، أي بعد انتقال زرياب من القيروان إلى الأندلس بخمسة أعوام!
كما تعمدت الرواية الإيهام بأن سبب طرد زيادة الله بن الأغلب لزرياب هو تأليب رجال الدين عليه بسبب استنكارهم الغناء والمجون ونحو ذلك، ووصفتهم بأنهم (الملتحون)! (انظر: رواية زرياب، ص179 وما بعدها)، وغيّرت الرواية ترتيب أحداث طرد زيادة الله لزرياب بطريقة مكشوفة، فجعلت الأبيات الاستفزازية الواردة أعلاه، التي غناها زرياب بين يدي زيادة الله وطرده بسببها: بعد طرده إياه وليس قبله (سبقني صديقي عبدالله الزماي إلى الإشارة إلى هذه الملحوظة في مطارحاتنا الأدبية عن موضوع الرواية، وفي مقال له عن الرواية في صحيفة الرياض. (انظر: زرياب.. من حق الفنان أن يبحث عن بيئته، عبدالله الزماي، صحيفة الرياض، بتاريخ 17 يونيو 2015)، (وانظر: رواية زرياب، ص182و183)! (وسيأتي الحديث عن هذا).

المسلمين على السفاسف، ومن التغير في الأخلاق والعادات، وبعد أن ندرك مدى مستوى هذه النقولات ودقتها، ثم ننزلها منازلها من النقل والفهم. بعد ذلك كله لا يكون ثمة مانعٌ من أن يكتب الروائي من خياله ما يراه مناسباً للكتابة، ولا بأس كذلك في أن يقرأ القارئ هذا ويبدي فيه رأيه النقدي أو الانطباعي، إذ إنني أرى أن الوعي بالمصادر وحقيقة ما فيها خطوة سابقة لعملية الإبداع، ولعملية تلقي الإبداع، إذ بذلك يكون التصور للوقائع التاريخية دقيقاً، وتكون الحقائق منفصلة عن الشوائب ومصفاة منها[42]، وهذا لا ينفي أبداً أنه لا بد من الإتقان الفني ليحصل التحقق الجمالي[43].

(42) انظر: رسالة في الطريق إلى ثقافتنا (مدرجة في كتاب المتنبي)، محمود شاكر (ص21 وما بعدها).

(43) إلى هنا نصل إلى آخر المطارحة الأدبية التي جرت بيني وبين الصديق أبي صالح، وأظنّ أن القارئ بعد هذه الجولة أصبح لديه تصوّر تامّ عن زرياب وسيرته وعما ورد عنه في كتب التاريخ والأدب، وبهذا يكون مستعداً لخوض مشكلات رواية (زرياب) الفنية فيما يأتي.

تفاصيل الجُرم المشهود

تفاصيل الجرم المشهود[44]

لا يكاد المجتمع الأدبي المحلّي يخلو من المدجّنين أو المُحبَطين، إذ ليست الرداءة ما يبعث على التدجين والإحباط، وإنما تسويقها، وتقديمُها، وتوقيرُها.

وبحسب اطلاعي القاصر، فإنني لم أجد مقالاً نقدياً يقصد إلى مساءلة هذه الرواية (زرياب) مساءلة جادّة عن أخطائها المميتة، ربما يعود ذلك إلى أنها فازت بجائزة أفضل رواية في معرض الرياض الدولي للكتاب، وعلى إثر ذلك، تلقتها بالقبول حفاوة القراء والكتاب والمحاورين[45]، وعندئذ فإن من الصعب أن يخرج قارئ أو ناقد أو روائي مستقلّ، ليطلق صرخة في وجه الرداءة ويقول: فكان ماذا؟!

ثم بعد ذلك يأتي الكاتب نفسه، الذي حاز جائزة نفيسة على رواية رديئة، ويحكي حيرته من أصداء فوزه بالجائزة، ويقول: (حقيقة لا أعلم ما إن كانت هناك أصداء لهذا الفوز أم لا.. تلقيت الخبر عبر اتصال هاتفي من مدير إدارة المكتبات العامة بوزارة الثقافة والإعلام عبدالله الكناني،

---

(44) يقول ماركيز: (وهكذا ضبطنا بالجرم المشهور عسكرياً ينتصر في المعارك قبل أن يولد، وأرملة تسافر برفقة زوجها المحبوب)، (الجنرال في متاهته، ترجمة الدكتور محمد العبد حمود، ص196). بهذه العبارة يصفُ الروائي غابرييل غارسيّا ماركيز الأخطاء التي ساعده محرّرو روايته في اقتناصها أثناء مراجعتهم لها، فليسمح لي القارئ الكريم أن أستعيرَها عنواناً لهذا الفصل في تعقب أخطاء رواية (زرياب).

(45) ينبغي أن أقرّ بفضل السبق للزميل الكاتب سلمان زين الدين، الذي كتب عرضاً سريعاً للرواية، يشير فيه إلى بعض هناتها، بيد أن المؤسف أن هذه الملحوظات التي أوردها زين الدين عن الرواية جاءت في مجملها خاطئة وغير دقيقة (انظر: مقبول العلوي يختبر العلاقات الإنسانية، صحيفة الحياة، سلمان زين الدين، بتاريخ 13 أبريل 2015).

وحقيقة شعرت بمشاعر مختلطة لأسباب عدة من أهمها أنني لم أكن أتوقع الفوز، وشعرت أيضاً أنني حصلت على جائزة مهمة لها وزنها الكبير في المحيط الثقافي المحلي، شعور كبير بالمسؤولية)[46].

وبعد هذا، لن نتعجب إذا لم يجد المؤلف أي غضاضة في أن يجابه بثقة أحد محاوريه المتسائلين عن أخطاء روايته، وورد السؤال وجوابه كما يأتي:

(رواية زرياب هناك من قال إنها تحوي تضارباً تاريخياً وجغرافياً.. ماذا تقول في هذا؟

- من أي ناحية؟ اذكر لي شيئاً محدداً. هناك أخطاء معرفية وقعت فيها مثل تقديم مدينة صور عن عكا[47] أو العكس في أثناء هجرة زرياب. قد يخطئ الروائي في عمله، فكل شيء جائز، فمن لا يعمل لا يخطئ، وقد يسعدك قارئ حصيف، ويبين لك خطأ ما هنا أو هناك، وهذا شيء رائع في واقع الأمر)[48].

(46) صحيفة الوطن، العلوي: الحركة النقدية نخبوية ومصابة بالشللية، بتاريخ 8 مارس 2015.
(47) يشير بهذا إلى ملاحظات سلمان زين الدين، التي أحلنا إليها آنفاً، وستأتي إحداها بعد قليل.
(48) محاورة صادق الشعلان لمقبول العلوي حول روايته (زرياب)، في صحيفة الحياة، بتاريخ 6 مايو 2015.

خريطة ابن جبير (المتخيلة)!

من المآخذ التي رصدها الكاتب سلمان زين الدين في مقاله عن رواية (زرياب) قوله:

(وذكر عكّا قبل صور، في الطريق من دمشق إلى الاسكندرية، ينطوي على خطأ جغرافي (ص 135)[49].

ثم يشير العلوي إلى ذلك في حواره مع صادق الشعلان بقوله:

(هناك أخطاء معرفية وقعت فيها مثل تقديم مدينة صور عن عكا أو العكس في أثناء هجرة زرياب. قد يخطئ الروائي في عمله، فكل شيء جائز[50].

ثم يأتي المؤلف ويوهم في حواره مع عبدالله الزماي (صديقي أبي صالح) بأن رحلة زرياب من بغداد إلى الأندلس كانت متخيّلة!

وهذا نص السؤال والجواب في الحوار:

(أخذت الرحلة مساحة أكبر مما يجب خلال الرواية، وربما كان ذلك على حساب أحداث أخرى أهم. ما رأيك؟

-ما ذكرته في سؤالك صحيح. لعل من أمتع اللحظات في سيرة زرياب هي لحظات نفيه. ففيها "يشطح" الخيال كثيراً

---

(49) مقبول العلوي يختبر العلاقات الإنسانية، صحيفة الحياة، سلمان زين الدين، بتاريخ 13 أبريل 2015.
(50) محاورة صادق الشعلان لمقبول العلوي حول روايته (زرياب)، في صحيفة الحياة، بتاريخ 6 مايو 2015.

مما يساعد في كتابتها روائياً. رواية زرياب هي في مجمل تفاصيلها "سيرة نفي". يمكننا تقسيم حياة زرياب إلى قسمين: قسم كان في بغداد والقسم الآخر في قرطبة. لبث زرياب في الأندلس ثلاثاً وثلاثين سنة ومثلها في أرض السواد. لكن الجزء الأكبر من انجازاته الكبيرة والمعروفة كان في قرطبة لأنها هيأت له البيئة الصالحة للإبداع فأبدع، أما القسم الأول من حياته فأهم ما فيه هو ظهوره المفاجئ والبسيط في بغداد ثم النفي. الرحلة أخذت أكبر جزء؛ لأنها سمحت لي بالتحرّك بالخيال يميناً وشمالاً بعيداً عن اللحظات المثبتة تاريخياً والتي يعرفها الجميع)[51]!

والحقّ، أن تفاصيل هذه الرحلة، التي (يشطح فيها خيال المؤلف)، (بعيداً عن اللحظات المثبتة تاريخياً) ويصفها بأنها (أخذت أكبر جزء) لم تكن من خيال الكاتب كما أوهم بذلك القراء، وإنما هي مأخوذة بالتحديد، وخطوة بخطوة، من مسيرة رحلة ابن جبير البرّية في عودته من الحج إلى الأندلس، التي مر فيها ببغداد وانتهت به إلى عكّا، ومسار رحلة ابن جبير معروف ومشهور، بل إنها مصوّرة على الخريطة في مراجع ومواقع، وهذا أحد نماذجها المرسومة في بعض مواقع الشبكة:

(51) محاورة عبدالله الزماي للعلوي حول رواية (زرياب)، في صحيفة الرياض، بتاريخ 15 يوليو 2015.

وبناء على رواية (زرياب) نفسها، نفترض أن رحلة بطلها بدأت في جمادى الآخرة من عام 204هـ، لأنها تقول على لسانه حال زيارة إسحاق الموصلي له لكي ينفيه من بغداد:

(وخصوصاً بعدما جاءني بعد حوالي أربعة أشهر من قدومه في معية الخليفة الجديد في موكب من الجند والحرس)[52].

لكن كيف جزمنا بأن خروج زرياب كان في جمادى الآخرة من عام 204هـ؟

يقول الطبري في تاريخه: (ذكر عن المأمون أنه لما قدم جرجان أقام بها شهراً، ثم خرج منها، فصار إلى الري في ذي الحجة، فأقام بها أياماً، فجعل يسير المنازل، ويقيم اليوم واليومين حتى صار إلى النهروان، وذلك يوم السبت، فأقام فيه ثمانية أيام، وخرج إليه أهل بيته والقواد ووجوه الناس، فسلموا عليه، وقد كان كتب إلى طاهر بن الحسين من الطريق، وهو بالرقة، أن يوافيه إلى النهروان، فوافاه بها، فلما

(52) رواية زرياب (ص107)، وسيأتي فيما بعد أن إسحاق الموصلي لم يكن في معية الخليفة، بل لم يكد يقربه إليه إلا بعد مضيّ أكثر من عشرين شهراً على قدومه إلى بغداد!

كان السبت الآخر دخل بغداد ارتفاع النهار لأربع عشرة ليلة بقيت من صفر سنة أربع ومائتين، ولباسه ولباس أصحابه أقبيتهم وقلانسهم وطراداتهم وأعلامهم كلها الخضرة)[53].

فإذا كانت مغادرة زرياب بعد أربعة أشهر من قدوم المأمون فإنه سيغادر ليلة منتصف جمادى الآخرة من عام 204هـ، أو بعدها بيسير.

أما خروج ابن جبير من بغداد عائداً إلى الأندلس، فيحدثنا هو به عن نفسه:

(واتفق رحيلنا من بغداد إلى الموصل، إثر صلاة العصر من يوم الإثنين الخامس عشر لصفر، وهو الثامن والعشرون لمايُه، فكان مقامنا بها ثلاثة عشر يوماً ونحن في صحبة الخاتونين خاتون بنت مسعود المتقدمة الذكر في هذا التقييد، وخاتون أم معز الدين صاحب الموصل، وصحبتهما حاج الشام والموصل وأرض الأعاجم المتصلة بالدروب التي إلى طاعة الأمير مسعود والد إحدى الخاتونين المذكورتين، وتوجه حاج خراسان وما يليها صحبة الخاتون الثالثة ابنة الملك الدقوس، وطريقهم على الجانب الشرقي من بغداد وطريقنا نحن إلى الموصل على الجانب الغربي منها. وهاتان الخاتونان هما أميرتا هذا العسكر الذي توجهنا فيه وقائدتاه، والله لا يجعلنا تحت قول القائل: ضاع الرعيل ومن يقوده)[54].

---

(53) تاريخ الطبري، ج574/8.
(54) رحلة ابن جبير (ص184).

إن ابن جبير بدأ رحلته بعد أكثر من 375 عاماً من خروج زرياب، وكان ذلك في فصل الصيف، وأما رحلة زرياب (بحسب الرواية) فهي في الشتاء (إذا حوّلنا تاريخها الذي التزمت به الرواية من الهجري إلى الميلادي)، فلا يُحتمل أن تتطابق أحداثهما، إذ لو أعرضْنا عن اختلاف الطقس، فإن من نافلة القول أنّ نرجع ونذكّر بأن ابن جبير إنما سلك هذه الطريق لأنه عائد مع قافلة الحُجاج التي ترأسها اثنتان من أميرات الحج، وهذا الأمر ليس بملزم لزرياب.

وكذلك، كما أن رحلات الصيف ليست كرحلات الشتاء، فإن من نافلة القول أيضاً أن خط السير لا بد من أن يكون تغيّر في الطريق ما بين بغداد والأندلس في هذه الأزمنة الممتدة، بين زرياب وابن جبير، التي تكاد تصل إلى أربعة قرون، خصوصاً أن الطرق ما بين بغداد والشام، وما بين الشام ومصر ممتلئة في زمن ابن جبير بمخاطر الصليبيين وقطاع الطرق، وهو ما لم يكن حاصلاً في عهد المأمون، وفي مثل هذا المعنى يقول المقريزي:

(وهذا الدرب الذي يسلكه العساكر والتجار وغيرهم، من القاهرة على الرمل إلى مدينة غزة، ليس هو الدرب الذي يسلك في القديم من مصر إلى الشام، ولم يحدث هذا الدرب الذي يسلك فيه من الرمل الآن إلا بعد الخمسمائة من سنيّ

الهجرة، عند ما انقرضت الدولة الفاطمية. وكان الدرب أوّلاً قبل استيلاء الفرنج على سواحل البلاد الشامية غير هذا)[55].

ويواصل المقريزي ناقلاً عن ابن خرداذبة (المتوفى 280هـ تقريباً) وهو قريب من زمن زرياب:

(قال أبو عبيد الله بن عبد الله بن خرداذبة في كتاب المسالك والممالك وصفة الأرض:

(والطريق من دمشق إلى الكسوة اثنا عشر ميلاً، ثم إلى جاسم أربعة وعشرون ميلاً، ثم إلى فيق أربعة وعشرون ميلاً، ثم إلى طبرية مدينة الأردن ستة أميال، ومن طبرية إلى اللجون عشرون ميلاً، ثم إلى القلنسوة عشرون ميلاً، ثم إلى الرملة مدينة فلسطين أربعة وعشرون ميلاً، والطريق من الرملة إلى أزدود اثنا عشر ميلاً، ثم إلى غزة عشرون ميلاً، ثم إلى العريش أربعة وعشرون ميلاً في رمل، ثم إلى الورادة ثمانية عشر ميلاً، ثم إلى أم العرب عشرون ميلاً، ثم إلى الفرما أربعة وعشرون ميلاً، ثم إلى جرير[56] **ثلاثون ميلاً، ثم إلى القاصرة أربعة وعشرون ميلاً، ثم إلى مسجد قضاعة ثمانية عشر ميلاً، ثم إلى بلبيس أحد وعشرون ميلاً، ثم إلى الفسطاط مدينة مصر أربعة وعشرون ميلاً)**[57].

---

(55) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المقريزي، ج418/1.
(56) الصحيح أنها (جرجير) والتصحيح من كتاب ابن خرداذبة (المسالك والممالك، ص78).
(57) إلى هنا انتهى نقل المقريزي عن كتاب ابن خرداذبة (المسالك والممالك، ص78 وما بعدها)، والكلام بعد من قوله (فهذا كما ترى) للمقريزي.

فهذا كما ترى، إنما كان الدرب المسلوك من مصر إلى دمشق، على غير ما هو الآن، فيسلك من بلبيس إلى الفرما في البلاد التي تعرف اليوم ببلاد السباخ من الحوف، ويسلك من الفرما، وهي بالقرب من قطية، إلى أم العرب، وهي بلاد خراب على البحر، فيما بين قطية والورادة، ويقصدها قوم من الناس، ويحضرون في كيمانها، فيجدون دراهم من فضة خالصة ثقيلة الوزن، كبيرة المقدار، ويسلك من أم العرب، إلى الورادة، وكانت بلدة في غير موضعها الآن، قد ذكرت في هذا الكتاب.

فلما خرج الفرنج من بحر القسطنطينية في سنة تسعين وأربعمائة لأخذ البلاد من أيدي المسلمين، وأخذ بغدوين الشوبك وعمّره في سنة تسع وخمسمائة، وكان قد خرب من تقادم السنين، وأغار على العريش، وهو يومئذ عامر، بطل السفر حينئذ من مصر إلى الشام، وصار يسلك على طريق البرّ مع العرب مخافة الفرنج إلى أن استنقذ السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بيت المقدس من أيدي الفرنج في سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، وأكثر من الإيقاع بالفرنج، وافتتح منهم عدّة بلاد بالساحل، وصار يسلك هذا الدرب على الرمل، فسلكه المسافرون من حينئذ إلى أن ولي ملك مصر الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب، فأنشأ بأرض السباخ على طرف الرمل بلدة عُرفت إلى اليوم بالصالحية، وذلك في سنة أربع وأربعين

وستمائة، وصار ينزل بها ويقيم فيها، ونزل بها من بعده الملوك.

فلما ملك مصر الملك الظاهر بيبرس البندقداريّ، رتب البريد في سائر الطرقات، حتى صار الخبر يصل من قلعة الجبل إلى دمشق في أربعة أيام، ويعود في مثلها، فصارت أخبار الممالك ترد إليه في كل جمعة مرّتين، ويتحكم في سائر ممالكه بالعزل والولاية، وهو مقيم بالقلعة، وأنفق في ذلك مالاً عظيماً حتى تم ترتيبه، وكان ذلك في سنة تسع وخمسين وستمائة، وما زال أمر البريد مستمرّا فيما بين القاهرة ودمشق، يوجد بكل مركز من مراكزه عدّة من الخيول المعدّة للركوب، وتعرف بخيل البريد، وعندها عدّة سوّاس، وللخيل رجال يعرفون بالسوّاقين، وأحدهم سوّاق يركب مع رسم بركوبه، خيل البريد ليسوق له فرسه، ويخدمه مدّة مسيره، ولا يركب أحد خيل البريد إلا بمرسوم سلطانيّ، فتارة يمنع الناس من ركوبه إلا من انتدبه السلطان لمهماته، وتارة يركبه من يريد السفر من الأعيان بمرسوم سلطانيّ، وكانت طرق الشام عامرة يوجد بها عند كل بريد ما يحتاج إليه المسافر من زاد وعلف وغيره ولكثرة ما كان فيه من الأمن أدركنا المرأة تسافر من القاهرة إلى الشام بمفردها راكبة، أو ماشية، لا تحمل زادا ولا ماء.

فلما أخذ تيمورلنك دمشق، وسبى أهلها، وحرّقها في سنة ثلاث وثمانمائة، خربت مراكز البريد، واشتغل أهل الدولة

بما نزل بالبلاد من المحن وما دهوا به من كثرة الفتن عن إقامة البريد، فاختلّ بانقطاعه طريق الشام خللاً فاحشاً، والأمر على ذلك إلى وقتنا هذا، وهو سنة ثمان عشرة وثمانمائة)[58].

والمقصود هنا إيضاح أنّ طرقات القوافل وخطط الأسفار تتغير من حين إلى حين، ومن زمن إلى زمن، وأن خط رحلة ابن جبير في عودته من بغداد إلى الأندلس كان يتناسب مع حاجته وواقعه وعصره، أما أن تترسّم رواية (زرياب) هذا المسار، ثم يوهم مؤلفها بعد ذلك القراء والصحافيين بأنها من خياله فهذا أمر أقل ما يقال عنه إنه غير لائق.

اقتفاء الأثر

والآن، أدعوك أيها القارئ إلى أن تصبر معي على استعراض نقاط التطابق بين السفرَين في رواية (زرياب) ورحلة ابن جبير:

يقول بطل رواية (زرياب): (أنخنا رواحلنا في شمال قرية الدجيل)[59].

ويقول: (ومع الزوال غادرنا قرية الدجيل)[60].

---

(58) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المقريزي، ج418/1 وما بعدها.
(59) رواية زرياب (ص110و111).
(60) السابق (ص111).

ويقول ابن جبير: (فكان مبيتنا تلك الليلة بإحدى قرى بغداد، نزلناها وقد مضى هدء من الليل، وبمقربة منها دجيل، وهو نهر يتفرع من دجلة يسقي تلك القرى كلها. وغدونا من ذلك الموضع)[61].

ويقول أيضاً: (وتمادى سيرنا إلى أن ارتفع النهار، فنزلنا قائلين ومريحين على دجيل)[62].

يقول بطل رواية (زرياب): (أنخنا رواحلنا في قرية تعرف بـ"الحربة")[63].

ويقول ابن جبير: (فنزلنا مع الصباح بمقربة من قرية تعرف بالحربة)[64].

يقول بطل رواية (زرياب): (وأسرعنا في السير حتى وصلنا منهكين، وقد هدّنا التعب والإنهاك وجعلنا أشبه ما نكون بالأشباح، إلى "حصن المعشوق" على شط دجلة)[65].

ويقول: (وهناك علمت أن هذا الحصن لم يُبنَ إلا ليكون ثكنة عسكرية لحماية الخليفة الراحل هارون وزوجته

(61) رحلة ابن جبير (ص185).
(62) السابق (ص186).
(63) رواية زرياب (ص111).
(64) رحلة ابن جبير (ص186).
(65) رواية زرياب (ص113).

المفضلة زبيدة، فقد كانا يمضيان وقتاً قليلاً فيه خلال العام)[66].

ويقول ابن جبير: (ونزلنا مع الصباح من يوم الخميس الثامن عشر لصفر على شط دجلة بمقربة من حصن يعرف بالمعشوق، ويقال إنه كان متفرّجاً لزبيدة ابنة عم الرشيده وزوجه)[67].

يقول بطل رواية (زرياب): (وعلى هذا فقد دخلنا "تكريت" عبر سورها القديم)[68].

ويقول ابن جبير: (فصبّحنا تكريت مع الفجر)[69].

يقول بطل رواية (زرياب): (مكثنا في تكريت أسبوعاً كاملاً، وقد فوجئت باتساع مساحتها واكتظاظ أسواقها الكثيرة، كانت تغصّ بالخلق الذين وجدت أكثرهم ذوي مروءة وشهامة)[70].

ويقول ابن جبير: (هي مدينة كبيرة واسعة الأرجاء، فسيحة الساحة، حفيلة الأسواق، غاصة بالخلق، أهلها أحسن أخلاقاً وقسطا في الموازين من أهل بغداد)[71].

---

(66) السابق.
(67) رحلة ابن جبير (ص186).
(68) رواية زرياب (ص117).
(69) رحلة ابن جبير (ص186).
(70) رواية زرياب (ص118).
(71) رحلة ابن جبير (ص186).

يقول بطل رواية (زرياب): (قام بجلد أربعة جنود بالسياط لانفرادهم عن القافلة وذهابهم إلى إحدى القرى التي تدعى "الجديدة" من دون إذنه)[72].

ويقول ابن جبير: (وتمادى سيرنا إلى أن ارتفع النهار من يوم الأحد بعده، فنزلنا قائلين بقرية على شط دجلة تعرف بالجديدة)[73].

يقول بطل رواية (زرياب): (خيمنا في أرض تدعى "قيارة"، وتحديداً في الجانب الشرقي منها، حيث حملت لنا الريح تلك الروائح المؤذية. وتأكدنا من ذلك بمجرد سيرنا بضع خطوات شمالي موقعنا الذي توقفنا فيه. رأينا قريبا منا وهدة من الأرض كان السواد يغطيها لمسافة شاسعة، وتنبع منها عيون من القار الأسود اللون ذي الدخان الكثيف الكريه الرائحة. كانت الأرض تبقبق وتغلي، وبين الفينة والأخرى ترتفع كرات من اللهب قبل أن تستقر ويندلح منها صلصال أسود ينبسط فوق أديم الأرض)[74].

ويقول ابن جبير: (مررنا بموضع يعرف بالقيارة من دجلة، وبالجانب الشرقي منها، وعن يمين الطريق إلى الموصل، فيه وهدة من الأرض سوداء كأنها سحابة قد أنبط الله فيها عيوناً كباراً وصغاراً تنبع بالقار، وربما يقذف بعضها بحباب منه كأنه الغليان، ويصنع له أحواض يجتمع فيها فتراه شبه

(72) رواية زرياب (ص119).
(73) رحلة ابن جبير (ص187).
(74) رواية زرياب (ص120).

الصلصال منبسطاً على الأرض أسود أملس، صقيلاً رطباً، عطر الرائحة، شديد التعلك، فيلصق بالأصابع لأول مباشرة من اللمس، وحول تلك العيون بركة كبيرة سوداء يعلوها شبه الطحلب الرقيق أسود تقذفه إلى جوانبها فيرسب قاراً)[75].

يقول بطل رواية (زرياب): (وصلنا إلى قرية صغيرة بالقرب من الموصل تسمى "العقيبة")[76].

ويقول ابن جبير: (ونزلنا بقرية تعرف بالعقيبة)[77].

يقول بطل رواية (زرياب) عن الموصل: (هذه المدينة العتيقة الحصينة والفخمة. هذه المدينة التي كانت ولا تزال على أهبة الاستعداد لغزوة أو غارة)[78].

ويقول ابن جبير: (هذه المدينة عتيقة ضخمة، حصينة فخمة، قد طالت صحبتها للزمن، فأخذت أهبة استعدادها لحوادث الفتن)[79].

يقول بطل رواية (زرياب): (في ربضها الواسع الذي يتوسط المدينة. لمحت مساجدها وأسواقها وخاناتها تعلوها تلك المسحة من الحزن القاتم والمرير، وكمسافرين غرباء أنخنا

---

(75) رحلة ابن جبير (ص187).
(76) رواية زرياب (ص121).
(77) رحلة ابن جبير (ص188).
(78) رواية زرياب (ص122).
(79) رحلة ابن جبير (ص188).

رواحلنا في قيسارية التجار التي تنتشر في ما حواليها الحوانيت)[80].

ويقول ابن جبير: (وللبلدة ربض كبير فيه المساجد والحمامات والخانات والأسواق، وأحدث فيه بعض أمراء البلدة (...) وبنى أيضاً داخل البلد وفي سوقه قيسارية للتجار، كأنها الخان العظيم)[81].

يقول بطل رواية (زرياب) عن زوجته: (أرادت أن تزور "تل التوبة" بعد أن تغتسل في العين المباركة التي اغتسل فيها سيدنا يونس عليه السلام وأمر قومه بالاغتسال منها)[82].

ويقول ابن جبير: (في الشرق منها إذا عبرت دجلة على نحو الميل تل التوبة، وهو التل الذي وقف به يونس عليه السلام بقومه، ودعا ودعوا حتى كشف الله عنهم العذاب، وبمقربة منه على قدر الميل أيضاً العين المباركة المنسوبة اليه، ويقال: انه أمر قومه بالتطهر فيها وإضمار التوبة، ثم صعدوا على التل داعين)[83].

يقول بطل رواية (زرياب): (استمر سيرنا الحثيث حتى ضحى اليوم التالي حيث قررنا الاستراحة في قرية "عين الرصد".

---

(80) رواية زرياب (ص124).
(81) رحلة ابن جبير (ص188).
(82) رواية زرياب (ص126).
(83) رحلة ابن جبير (ص189).

كان من الغريب أن تحتوي تلك القرية على كثير من الخانات والنزل رغم قلة ساكنيها)[84].

ويقول ابن جبير: (وقِلنا بقرية تعرف بعين الرصد، وكان مقيلنا تحت جسر معقود على وادٍ يتحدر فيه الماء، وكان مقيلاً مباركاً. وفي تلك القرية خان كبير جديد. وفي محلات الطريق كلها خانات)[85].

يقول بطل رواية (زرياب): (وقريباً من قرية "جدال"، وعلى يمين الطريق تحديداً، يوجد جبل "الجودي" الذي استوت عليه سفينة سيدنا نوح عليه السلام)[86].

ويقول ابن جبير: (وأصبحنا يوم الأحد بقرية تعرف بالمويلحة، وأسرينا منها وبتنا بقرية كبيرة تعرف بجدال لها حصن عتيق. وفي يومنا هذا رأينا، عن يمين الطريق، جبل الجودي المذكور في كتاب الله تعالى الذي استوت عليه سفينة نوح، عليه السلام)[87].

يقول بطل رواية (زرياب): (وانطلقنا من "جدال" باتجاه نصيبين)[88].

---

(84) رواية زرياب (ص129).
(85) رحلة ابن جبير (ص191).
(86) رواية زرياب (ص129).
(87) رحلة ابن جبير (ص191).
(88) رواية زرياب (ص130).

ويقول ابن جبير: (رحلنا في السحر الأعلى من يوم الاثنين التاسع والعشرين لصفر، فكان مبيتنا في قرية من قرى نصيبين، ومنها إليها مرحلة)[89].

يقول بطل رواية (زرياب) عن نصيبين: (وأخبرني قيس بأنها جنة الله في أرضه، ولكن خاب ظني قليلاً عندما اكتشفت أنها تختلف بظاهرها عن باطنها، فعندما تكون على مشارفها تبدو لك مدينة حسنة، ولكن عندما تلجها تجد بيوتها تتزاحم وأسواقها تتداخل، وشوارعها ضيقة لا يوجد في داخلها فسحة)[90].

ويقول ابن جبير عن نصيبين: (شهيرة العتاقة والقدم، ظاهرها شباب، وباطنها هرم، جميلة المنظر، متوسطة بين الكبر والصغر، يمتد أمامها وخلفها بسيط أخضر مد البصر، قد أجرى الله فيه مذانب من الماء تسقيه، وتطرد في نواحيه، وتحف بها عن يمين وشمال بساتين ملتفة الأشجار، يانعة الثمار، ينساب بين يديها نهر قد انعطف عليها انعطاف السوار، والحدائق تنتظم بحوافيه، وتضيء ظلالها الوارفة عليه، فرحم الله أبا نواس الحسن بن هانئ حيث يقول:

طابت نصيبين لي يوماً فطبتُ لها... يا ليت حظي من الدنيا نصيبينُ

(89) رحلة ابن جبير (ص191).
(90) رواية زرياب (ص130).

فخارجها رياضي الشمائل، أندلسي الخمائل، يرف غضارة ونضارة، ويتألق عليه رونق الحضارة، وداخلها شعث البادية باد عليه، فلا مطمح للبصر إليه، لا تجد العين فيه فسحة مجال، ولا مسحة جمال)[91].

يقول بطل رواية (زرياب): (دخلنا مدينة "رأس العين" أولى مراحل الطريق إلى بلاد الشام. لم يستطع ماء رأس العين الزلال والشهير بصفائه وبطعمه ونقاوته أن ينسيني مرارة الفقد والحنين، ولقد صليت في جامع الخليفة عمر بن عبد العزيز)[92].

ويقول ابن جبير: (مدينة رأس العين، هذا الاسم لها من أصدق الصفات، وموضوعها به أشرف الموضوعات، وذلك أن الله تعالى فجر أرضها عيونا وأجراها ماء معيناً (...) ولها جامعان حديث وقديم، فالقديم بموضع هذه العيون، وتنفجر أمامه عين معينة هي دون اللتين ذكرناهما. وهو من بنيان عمر بن عبد العزيز، رضي الله عنه، لكنه قد أثر القدم فيه حتى آذنَ بتداعيه)[93].

إلى هنا ينتهي تتبع رواية (زرياب) شبه الدقيق لرحلة ابن جبير (وأقول شبه الدقيق لأن الرواية قفزت مدينة دنيصر ما بين نصيبين ورأس العين)، وعند هذا الحد تتوقف الرواية عن ذكر مدن وقرى عدة مرت بها، فلم تتعرض للمرور

(91) رحلة ابن جبير (ص192).
(92) رواية زرياب (ص136).
(93) رحلة ابن جبير (ص195و196).

بمدينة حرّان، ولا لعبور الفرات، ولا لمدينة منبج وبزاغة وحلب، وحتى بعدما وصلت الرواية بزرياب فجأة إلى دمشق بدا السرد فاتراً غير متحمس لاتباع خطى ابن جبير هذه المرة، مع أن واقع الشخصية يفترض (ولم أقل يفرض) أن يكون عبور شخصية مثل زرياب بمدينة مثل دمشق، في عظمتها وحضارتها وعمرانها، لأول مرة، محرضاً قوياً على الاهتمام بها.

ومع ذلك، فإن الرواية ظلت تدور في فلك رحلة ابن جبير حتى وصلت بنا إلى عكا وصور، وكان ذلك سبباً في وقوعها في خطأ آخر أشرت إليه سابقاً، سأتناوله بعد قليل.

وبعد، أفلم يكن من الخير لكاتب الرواية ألا يوحي بأن هذه الرحلة التي هي باعترافه (**أخذت أكبر جزء**)[94]، ألم يكن من الخير له أن يعترف لسائليه بأنه اعتمد في الجزء الأكبر من روايته على تحسس آثار ابن جبير حتى أدركه السأم والتعب منها، ثم بعد ذلك اختزل الأماكن والرحلات والمشاهدات اختزالاً؟ بدلاً من أن يقول إنها (**سمحت لي بالتحرّك بالخيال يميناً وشمالاً بعيداً عن اللحظات المثبتة تاريخياً والتي يعرفها الجميع**)[95]؟!

والسؤال المتبادر إلى ذهني هنا:

(94) محاورة عبدالله الزماي للعلوي حول رواية (زرياب)، في صحيفة الرياض، بتاريخ 15 يوليو 2015.
(95) السابق.

إذا كانت رحلة ابن جبير استحوذت على (أكبر جزء) من هذه الرواية، فلماذا كانت الرواية عن زرياب ولم تكن عن ابن جبير؟

الاعتراف الصريح الوحيد

قال الزميل سلمان زين الدين في عرضه لرواية (زرياب): وذِكر عكّا قبل صور، في الطريق من دمشق إلى الاسكندرية، ينطوي على خطأ جغرافي (ص 135)[96].

وقال مقبول العلوي في لقائه مع صادق الشعلان: (هناك أخطاء معرفية وقعت فيها مثل تقديم مدينة صور عن عكا أو العكس في أثناء هجرة زرياب. قد يخطئ الروائي في عمله، فكل شيء جائز، فمن لا يعمل لا يخطئ، وقد يسعدك قارئ حصيف، ويبين لك خطأ ما هنا أو هناك، وهذا شيء رائع في واقع الأمر)[97].

لكن: لماذا وقع المؤلف في هذا الخطأ؟

ذلك يرجع إلى شدة اقتفائه لأثر ابن جبير، الذي جعله يرتب المدن هكذا: دمشق، فعكا وصور، بيد أن مدينة صور تقع شمال عكا، فما الذي يذهب بزرياب شمالاً بعد وصوله إلى عكا وهو يريد المغرب أو الأندلس؟

---

(96) مقبول العلوي يختبر العلاقات الإنسانية، صحيفة الحياة، سلمان زين الدين، بتاريخ 13 أبريل 2015.

(97) محاورة صادق الشعلان لمقبول العلوي حول روايته (زرياب)، في صحيفة الحياة، بتاريخ 6 مايو 2015.

بيسيرٍ من التأمل في رحلة ابن جبير، نجد أنه هو الآخر وصل إلى عكا، ثم اتجه إلى صور، ولكنه عاد إلى عكا أيضاً، وسبب ذلك أن المسافرين في رحلة ابن جبير عندما وصلوا إلى عكا وُصف لهم مركب في صور، فاتجهوا إلى صور لمشاهدة ذلك المركب، فلما رأوا أنه غير صالح عادوا أدراجهم إلى عكا، وانطلق ابن جبير ومن معه منها مباشرة عبر البحر إلى الأندلس، خلافاً للبطل زرياب، الذي اتضح بعدُ أنه إنما كان يرمي إلى الوصول إلى المغربِ برّاً وليس بحراً، ولم يوصف له مركب ولا غير المركب، فكان اتجاهه في الرواية إلى صور شمالاً لأنه (**مع ابن جبير يا شقرا**)، وليس لأن المؤلف أخطأ في الترتيب كما حاول العلوي أن يوهم به محاوره في صحيفة الحياة!

يحدثنا ابن جبير عن قصة وجوده في عكا، واتجاهه إلى صور قائلاً:

(فكان مقامنا بها يومين، ثم توجهنا إلى صور يوم الخميس الثاني عشر لجمادى المذكورة (...) وذلك لمطالعة مركب بها أعلمنا أنه يتوجه إلى بجاية طمعا في الركوب فيه (...) فكان مقامنا بها أحد عشر يوماً، دخلناها يوم الخميس وخرجنا منها يوم الأحد الثاني والعشرين لجمادى المذكورة، وهو آخر يوم من شتنبر، وذلك أن المركب الذي كنا أملنا الركوب فيه استصغرناه فلم نر الركوب فيه)[98].

(98) رحلة ابن جبير (ص250و251).

ولئن كانت رواية (زرياب) تورطت في المضي ببطلها في رحلته على آثار ابن جبير، ثم أرادت له أن يقصد مدينة الإسكندرية، ثم سوسة، ليصل به إلى القيروان، فقد كان من الأجدر بالمؤلف، بعد انتهاء سير ابن جبير البرّي أن يستمر في تغريبة بطله على الاقتراح الذي قدمه ابن جبير نفسه لقرائه، إذ إنه كان أدرى بصعوبات السفر وأهواله (في وقته)، فكانت نصيحته لمن يعود من طريق الحج عبر بغداد وعكا ويريد الإسكندرية ثم بلاد المغرب ثم الأندلس ما نصه:

(فأحق بلاد الله بحسبة يكون السيف درتها هذه البلدة[99]، والأولى بمن يمكنه ذلك أن لا يراها وأن يكون طريقه على الشام إلى العراق، ويصل مع أمير الحاج البغدادي، وإن لم يمكنه ذلك أولاً فيمكنه آخراً عند انفضاض الحاج، يتوجه مع أمير الحاج المذكور إلى بغداد ومنها إلى عكة، فان شاء دخل منها إلى الإسكندرية، وان شاء إلى صقلية أو سواهما. ويمكن أن يجد مركباً من الروم يقلع إلى سبتة أو سواها من بلاد المسلمين)[100].

---

(99) يعني بلدة عيذاب.

(100) رحلة ابن جبير (ص43). وأشار كذلك إلى أن رحلات البحر هذه لا تبحر إلا في فصلي الربيع والخريف (انظر: رحلة ابن جبير، ص256).

قلت: وأنا، للحقيقة، أشمّ في مراحل هذه الرواية ورحلتها إلى مصر رائحة أثر كتاب محمود أحمد الحفني، واسمه: (زرياب أبو الحسن علي بن نافع، موسيقار الأندلس) ضمن سلسلة أعلام العرب، رقم (54). لأن مؤلفها قال فيها (ص71): **(بدأ زرياب رحلته سرّاً من بغداد، ومر بالصحراء ومصر، واجتاز الصحراء، وقطع المسلك براً وبحراً).** انتهى. ولم أجد أي أصل اعتمدت عليه الرواية في تخيلها رحلة مصر إلا=

وأما الطريق البرّية التي أشقى فيها المؤلف بطل الرواية من غير أن يكلف نفسه عناء وصفها (مع أنه لا وجود في سيرة زرياب الحقيقية لما يقضي بأنه مرّ بمصر والإسكندرية) فقد نقلنا آنفاً جزءاً من سيرها المعهود من الشام إلى الفرما عند ابن خرداذبة[101] (المتوفى 280)، وأما تكملتها من بعد الفرما، فيرويها البشاري المقدسي (المتوفى 381هـ):

(وأما المسافات فتأخذ من الفرما إلى البقارة مرحلة، ثم إلى الورّادة مرحلة، ثم إلى العريش مرحلة، ثم إلى رفح مرحلة، ويؤخذ في الصيف من الفرما إلى جرجير مرحلة ثم إلى فاقوس مرحلة، وفي الشتاء من الفرما إلى الرّصد مرحلة، ثم إلى فاقوس مرحلة، وتأخذ من الفرما في الماء إلى تنّيس مرحلة، ثم إلى دمياط مرحلة، ثم إلى المحلة الكبيرة مرحلة ثم إلى الاسكندريّة مرحلتين)[102]، وهذه المواضع موصوفة في الكتب المتخصصة في هذا الشأن منذ وقت مبكّر.

ولكن ما حيلتي فيك إن كنت لا تريد إلا أن تجري وراء ابن جبير، حتى إذا أعياك السعي قلت:

=مجازفة الحفني هذه، فاتبعته على مجازفته! ولي عودة في الهوامش إلى هذا المرجع مرة أخرى.

(101) انظر: المسالك والممالك (ص78).

(102) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، المقدسي (ص 213).

(لن أتوقف كثيراً عند تلك المدن التي مررت بها. كانت في أغلبها تتشابه في نظري[103]، ولم أشعر نحوها بأي ودّ أو رابط سوى رابط الشعور بالغربة والنفي والاستبعاد)[104].

أو تقول:

(توقفنا مراراً في قرى ومدن، ولكن قلبي كان مغلفاً بطبقة من صخر عنها فلم أحفل بها، ما إن أدخل مدينة أو قرية حتى أتهيّأ للرحيل مرة أخرى. ولم أنتبه لنفسي إلا وأنا في طريقي نحو الإسكندرية[105]. طال طريقي بالفعل. ولم يلفت نظري شيء في الطريق نحو الإسكندرية سوى بعض تلك العواصف الرملية التي هبّت علينا أثناء عبورنا سيناء باتجاه أرض مصر)[106].

قلت: منذ أن حطّت رحلة ابن جبير رحالها على ساحل برّ المشرق وأنت على هذه الحال: (لا شيء يلفت نظرك، ولا تنتبه لنفسك)!

الموال نفسه

وعلى الموال نفسه، أو المنوال نفسه، فإن بطل رواية (زرياب)، بعدما أراد أن يخرج من سوسة إلى الأندلس، ذكر أنه مرّ بأهوال شديدة في البحر، وبما أنه قد مرّ على رحلة ابن

(103) حتى منبج وحلب؟ وحتى دمشق وصور وعكا؟!
(104) رواية زرياب (ص137).
(105) حتى غزة والعريش؟ وحتى البحيرات؟ وحتى خوض النيل وعبوره؟! كلها تشابهت؟!
(106) رواية زرياب (ص140).

جبير، التي تعد من أغنى الرحلات في التاريخ بوصف الأهوال البحرية، حتى إنها لتكاد تضارع رواية (موبي ديك) في هذا المضمار[107]، وهي بالنسبة إلى (موبي ديك) مثل رسالة (حي بن يقظان) إلى (روبنسون كروزو)، ومع ذلك، لم تتعرض الرواية لشيء من ذلك، وإنما اكتفت بذكر عبارات مقتضبة جداً، لا تصل إلى ذلك التفصيل الطويل الذي اشتملت عليه الرواية في شطر من الشق البرّي من رحلة زرياب، فلم تزد على أن قال بطلها:

(لم نمكث في سبتة كثيراً، فقد مر أسبوع كامل ارتاحت فيه نفوسنا من أهوال البحر ومن الخوف من الموت إما قتلاً أو غرقاً أو حتى خوفاً من أن نقع في أسر القراصنة فنباع كعبيد في أسواق النخاسة من جديد)[108].

إن زرياباً لم يشأ أن يستنسخ من رحلة ابن جبير إلا شطراً من جانب البرّ، ولا همّة له تروي شيئاً من جانب البحر، فليكن له ما أراد!

(107) على سبيل المثال، انظر: رحلة ابن جبير (ص264 وما بعدها).
(108) رواية زرياب (ص191و192)

هذر الليالي الشاتيات

يقول الأمير الشاعر سلمان بن محمد:

قيّدتْ كي تحتمي من مدّعٍ من أتاها عاطلاً أمَّ الشلَلْ
لا كهذرٍ في ليالٍ شاتياتٍ ما وَعى قائلها ماذا فعلْ[109]

تذكّرتُ هذه الأبيات وأنا أقف على بعض التخرّصات التي تخالف الواقع التاريخي مخالفة قاطعة في رواية (زرياب)، فمن ذلك:

الكردي الأسود!

قرأنا معاً أن زرياباً كان غلاماً أسود، وهذا الأمر يقر به بطل الرواية فيها، ويقر به تلميذه المزعوم[110] **أسلم بن عبدالعزيز القاضي، الذي يصف زرياباً الشيخ المريض بقوله: (قطعة متشققة من الجلد الأسود تكسو عظاماً ناتئة)**[111]**.**

ومع ذلك كله، أصرّت الرواية على أن هذا الغلام الأسود الذي سماه والده علي بن نافع، إنما هو من جبال طوروس! يقول البطل:

---

(109) ديوان نفَس الأزهار، الأمير سلمان بن محمد (ص53).
(110) سيأتي الحديث عن هذا الوهم أيضاً بعد قليل.
(111) رواية زرياب (ص217).

(لا أذكر من طفولتي شيئاً سوى ذلك الفجر الذي خُطِفتُ فيه من قرية غافية تحت جبال طوروس)[112]!

ويقول: (إلى أين سأذهب في منفاي؟ أإلى سفوح جبال طوروس حيث تكونت الفرحة الأولى وسالت الدمعة الأولى)[113]!

وأيضاً: (هل قلت الموصل؟ لم أنتبه إلى نفسي إلا وأنا أردّد اسمها على لساني. يا مالك الكون والبشر وكل الخلائق... هاأنذا أعود إلى أرض البذرة الأولى والبسمة الأولى والدمعة الأولى... هذه الموصل التي ما فتئت تقضّ مضجعي ليالي طوال. الرايات والبنود. الجنود والخوذات التي تلمع تحت وهج الشمس. أمي الباكية. سنابك الخيل والدماء والصياح والبكاء برزت فجأة أمامي وأصبحت مثل الحقائق التي لا لبس فيها)[114].

وابن الأغلب أيضاً يقول له: (إنني يا ابن السوداء أمنحك ثلاثة أيام لكي تغادر القيروان)[115].

ومع ذلك تعرض علينا الرواية مشهداً غريباً: يقول إسحاق الموصلي لهارون الرشيد وهو يقدم تلميذه زرياباً إليه: (فتى كردي الأصل عربي الهوى، من موالي والدكم الراحل)[116]!

---

(112) السابق (ص9).
(113) السابق (ص86).
(114) السابق (ص121).
(115) السابق (ص182).
(116) السابق (ص62).

فوا عجباً لهذه الأحجية التي لا يستطيع فتح مغاليقها إلا (زرياب) نفسه في الرواية، وهي لعمري أغلقُ الأحاجي إن لم تكن من هذر الليالي الشاتيات.

فخ النسبة إلى الموصل

لا يجد المؤلف حرجاً في أن يقدم لنا زرياباً على أنه عاشَ تسعة أعوام من طفولته في الموصل، يقول:

(في الموصل عشت تسع سنوات من عمري)[117]، والذي جرّه إلى هذا المزلق أن إبراهيم الموصلي وابنه إسحاق اشتهرا بهذه النسبة، ويبدو أن المؤلف لا يبحث عن شيء وراء ذلك، وهو أن هذه النسبة إنما عَلِقت بإبراهيم الموصلي (والد إسحاق) ولزمته، بعدما هرب من أهله في الكوفة، وأقام في الموصل عاماً، ثم انتقل إلى الري، ومكث فيها عند محمد بن سليمان بن علي، حتى نقله بعد ذلك إلى بغداد، بطلب من المهدي.

يقول الأصفهاني في الأغاني:

(قال يحيى بن علي في خبره: وكان سبب قولهم إبراهيم الموصلي أنه لما نشأ واشتد وأدرك صحب الفتيان واشتهى الغناء فطلبه، واشتد أخواله عليه في ذلك وبلغوا منه، فهرب منهم إلى الموصل، فأقام بها نحواً من سنة، فلما رجع إلى

(117) السابق (ص9).

الكوفة قال له إخوانه من الفتيان: مرحباً بالفتى الموصلي، فلقب به)[118].

ويروي صاحب الأغاني هذه القصة على لسان إبراهيم الموصلي وهو في الري بعد انصرافه من الموصل:

(فأقمت على تلك الحال أياماً، حتى بلغ محمد بن سليمان بن علي خبري، فوجه إلي فأحضرني وأمرني بملازمته، فقلت له: أيها الأمير، إني لست أتكسب بالغناء وإنما ألتذه، فلذلك تعلمته، وأريد العود إلى الكوفة، فلم أنتفع بذلك عنده، وأخذني بملازمته، وسألني من أين أنا؟ فانتسبت إلى الموصل، فلزمتني وعُرفت بها، ولم أزل عنده أثيراً مكرماً حتى قدم عليه خادم من خدم المهدي، فلما رآني عنده قال له: أمير المؤمنين أحوج إلى هذا منك، فدافعه عني، فلما قدم الرسول على المهدي سأله عما رأى في طريقه ومقصده، فأخبره بذلك حتى انتهى إلى ذكري، فوصفني له، فأمره المهدي بالرجوع إلى محمد وإشخاصي إليه، ففعل ذلك، وجاء فأشخصني إلى المهدي، فحظيت عنده وقدمني)[119].

والدة إسحاق الموصلي

يزعم بطل الرواية أن اسم والدة إسحاق الموصلي (دوشار)، يقول:

---

(118) الأغاني، الأصفهاني، ج5/103.
(119) السابق، ج5/104و105.

(لم يكن سيدي إسحاق الموصلي متزوجاً في هذه اللحظة؛ أقصد حتى بعد موت زوجته قبل عشر سنوات. كان اسمها "دوشار"، اختارتها له أمه التي كانت تحمل الاسم نفسه)[120].

أما الأصفهاني فيروي عن إسحاق الموصلي قوله:

(أسلِم أبي إلى الكتاب، فكان لا يتعلم شيئاً، ولا يزال يُضرب ويُحبس ولا ينجع ذلك فيه، فهرب إلى الموصل، وهناك تعلم الغناء، ثم صار إلى الري، وتعلم بها أيضاً ومهر، وتزوج هناك امرأته دوشار، وتفسير هذا الاسم أسدان، وطال مقامه هناك وأخذ الغناء الفارسي والعربي، وتزوج بها أيضاً شاهك أم إسحاق ابنه وسائر ولده)[121].

وقال الأصفهاني أيضاً: (وأم إسحاق امرأة من أهل الري يقال لها شاهك، وذكر قوم أنها دوشار التي كانت تغني بالدف فهويها إبراهيم وتزوجها، وهذا خطأ، تلك لم تلد من إبراهيم إلا بنتاً، وإسحاق وسائر ولد إبراهيم من شاهك هذه)[122].

حُجرة (ستار أكاديمي) الإسحاقية

يروي البطل أن إسحاق بن إبراهيم الموصلي أسس مدرسة للغناء، وأنه كان يدرب المغنين في حجرة منزوية، يقول:

(120) رواية زرياب (ص39).
(121) الأغاني، الأصفهاني، ج103/5.
(122) السابق، ج175/5.

(كانت تجري تهيئة المغنين الذين يتلقون علوم الغناء على يد سيدي إسحاق في تلك الحجرة المنزوية بعيداً عن مدخل الدار. حجرة واسعة نوعاً ما. طولها عشرة أذرع ومثلها عرضاً. كان لا يوجد فيها سوى فرش من حصير نال منه الزمن ووسادة من قطن يجلس فوقها المغني المبتدئ، ثم تبدأ الطقوس والفحوصات التي تشير إلى وجود المغني الجيد من السيئ. يقف سيدي إسحاق على بعد خطوتين من المغني المتدرب، ثم يطلب منه أن يصيح بأعلى صوته بكلمة "يا حجام"...)[123].

هذه الطقوس كلها (على ما فيها من بعض التغييرات من المؤلف)، وهذه المدرسة، لم يؤسسها إسحاق، إنما أسسها وأقامها زرياب نفسه حينما انتقل إلى الأندلس، وسبق أن نقلناها هنا في الموضع الثالث من المواضع التي تناولنا فيها كلام المقري في نفح الطيب عن زرياب.

وأما إسحاق نفسه فكان بضد ما يحكيه بطل الرواية، ولعل المؤلف خلط بين ما يروى عن إسحاق وما يروى عنه أبيه إبراهيم، وفي هذا يقول الأصفهاني عنه:

(123) رواية زرياب (ص43).

(وكان مع كراهته الغناء أضنّ خلق الله وأشدّهم بخلاً به على كل أحد، حتى على جواريه وغلمانه ومن يأخذ منه منتسباً إليه متعصباً له، فضلاً عن غيرهم)[124].

وقال ياقوت الحموي في ترجمته:

(قال إسحاق: نحن من أرجان ومواليا من الخزيميين، وكانت لهم ضياع عندنا، وإنما نسبوا إلى الموصل لأن أباه إبراهيم سافر إليها وأقام بها مدة يعلم الغناء، فلما عاد إلى الكوفة قيل له: كيف أنت يا موصلي، فلصقت به الموصلي؛ وكنيته أبو محمد[125]، وكان الرشيد إذا أراد أن يولع به كناه أبا صفوان، وموضعه من العلم ومكانه من الأدب والشعر لو أردنا استيعابه طال الكتاب، وخرجنا عن غرضنا من الاختصار. ومن وقف على الأخبار وتتبع الآثار علم موضعه. وأما الغناء فكان أصغر علومه وأدنى ما يوصف به، وإن كان الغالب عليه، لأنه كان له في سائر علومه نظراء ولم يكن له في هذا نظير، لحق فيه من مضى وسبق من بقي، فهو إمام هذه الصناعة. على أنه كان أكره الناس لهذه الصناعة وهي الغناء والتسمّي به ويقول: وددت أن أضرب كلما أراد متّي من يندبني أن أغنّي، وكلما قال قائل إسحاق الموصلي المغنّي، عشر مقارع- ولا أطيق أكثر منها- وأعفى من الغناء والنسبة إليه.

(124) الأغاني، الأصفهاني، ج173/5. قلت: ولا يتعارض هذا مع أن زرياباً كان تلميذاً لإسحاق، فقد ينتهز الفرص لأخذ الغناء عنه، وسبق أن نقلنا ذكر المقري عن زرياب أنه (كان تلميذاً لإسحاق الموصلي ببغداد، فتلقف من أغانيه استراقاً). (نفح الطيب، المقري التلمساني، ج122/3)، فتأمل.

(125) أي كنية إسحاق الموصلي.

وكان المأمون يقول: لولا ما سبق لإسحاق على ألسنة الناس وشهر به من الغناء عندهم لوليته القضاء بحضرتي، فإنه أولى به وأحق وأعف وأصدق تديّنا وأمانة من هؤلاء القضاة وأكثر)[126].

هل طرد الأمين إسحاق؟

كذلك، تتوهم الرواية أن الخليفة الأمين طرَد إسحاق الموصلي، وأمهله ثلاثة أيام للمغادرة والانضمام إلى أخيه المأمون:

(لا أريد أن أراك بعد اليوم في بغداد. عد إلى بلدك الموصل أو اذهب إلى صديقك القديم في خراسان... كان يعرّض بصداقته لأخيه المأمون)[127].

وأيضاً: (اغرب عن وجهي الساعة، ولئن رأيتك في مملكتي بعد ثلاثة أيام أرقت دمك واستبحت حباتك وسلبت مالك وكل ما تملك)[128].

ومن كان لديه أدنى علم بسير خلفاء وأمراء العصر العباسي، فهو يعلم أنهم لم يكونوا يسمحون للمشاهير أو للعباقرة أو لذوي المواهب بالانضمام إلى منافسيهم[129]، ناهيك عن أن هذا التأريخ الروائي لم يحدث منه شيء، فحال إسحاق مع الأمين هي حاله مع المأمون بعده، فكلاهما كان يحجبه حيناً ويقرّبه حيناً، ويغضب منه حيناً ويرضى عنه حيناً، ويروي الأصفهاني عن شهوات الصناجة التي كان إسحاق

---

(126) معجم الأدباء، ياقوت الحموي، ج2/594و595.

(127) رواية زرياب (ص97).

(128) السابق. قلت: هذه القصة تطابق طرد زيادة الله بن الأغلب لزرياب، وسبقت الإشارة إليها (انظر: العقد الفريد، ابن عبد ربه، ج37/7)، لكن مؤلف رواية (زرياب) أبى إلا أن يسقط هذه القصة على إسحاق الموصلي أيضاً، فيزعم أن الأمين طرده، وهذا أمر غير موثق تاريخياً (وسيأتي بعد قليل).

(129) أستحضر هنا قصة هرَب المتنبي الدائم من الأمراء الذين يحدث الخلاف بينه وبينهم، وحرصهم الشديد على محاصرته ومنعه من ذلك.

أهداها إلى الواثق (أن محمداً الأمين لما غناه إسحاق لحنه الذي صنعه في شعره وهو الثقيل الأول:

يأيّها القائمُ الأمين فدَتْ نفسَك نفسي بالمال والوَلَدِ
بَسَطْتَ للنّاس إذ وَلِيتَهُمُ يداً من الجود فوق كلّ يدِ

فأمر له بألف ألف درهم فرأيتها قد وصلت إلى داره يحملها مائة فراش)[130].

وذكر الأصفهاني عن إسحاق أنه قال:

(غضب علي المخلوع[131] فأقصاني وجفاني، فاشتد ذلك عليّ، قال: وجفاني وهو يومئذ بالأنبار، فحملت عليه بالفضل بن الربيع، فطلب إليه، فشفّعه المخلوع، ودعاني وهو مصطبح، فلم أزل متوقفاً، وقد لبست قباء وخفّاً أحمر واعتصبت بعصابة صفراء وشددت وسطي بشقة حمراء من حرير، فلما أخذوا في الأهزاج دخلت وفي يدي صفاقتان وأنا أتغنى:

صوت

اسمع لصوتٍ طريبٍ من صَنعةِ الأنباري
صوتٍ مليحٍ خفيفٍ يطيرُ في الأوتار

الشعر والغناء لإسحاق هزج بالبنصر.

فسُرّ بذلك محمد، وكان صوتهم في يومهم ذلك، وأمر لي بثلاثمائة ألف درهم)[132].

---

(130) الأغاني، الأصفهاني، ج239/5.
(131) المخلوع لقب يعرف به الأمين عند أمراء المأمون وجنده، وانتشر بعد مقتله، وورد في رسالة الأمير طاهر بن الحسين بعد مقتله إلى أخيه المأمون. (انظر: تاريخ الطبري، ج489/8).
(132) الأغاني، الأصفهاني، ج205/5. وذكر أيضاً أنه غناه للرشيد قبل ذلك، في الجزء نفسه (ص276).

وفي العقد الفريد لابن عبد ربه ما يدل على ما ذكرناه، من أن حجب إسحاق الموصلي لم يكن مقتصراً على خليفة دون آخر، فكما كان الأمين يحجبه، فكذلك حجبَه المأمون:

(قال إسحاق بن إبراهيم الموصلي: **لما أفضت الخلافة إلى المأمون أقام عشرين شهراً لم يسمع حرفاً من الغناء**، ثم كان أول من تغنى بحضرته أبو عيسى. ثم واظب على السماع، وسأل عني، فجرّحني عنده بعض من حسدني، فقال: ذلك رجل يتيه على الخلافة. فقال المأمون: ما أبقى هذا من التيه شيئاً، وأمسك عن ذِكْري. وجفاني كل من كان يصلني، لما ظهر من سوء رأيه. فأضر ذلك بي، حتى جاءني يوماً علُّوية فقال لي: أتأذن لي اليوم في ذِكْرك؟ فإني اليوم عنده. فقلت: لا، ولكن غنه بهذا الشعر، فإنه سيبعثه على أن يسألك: من أين هذا؟ فينفتح لك ما تريد، ويكون الجواب أسهل عليك من الابتداء. فمضى علُّوية. فلما استقر به المجلس غناه الشعر الذي أمرته به، وهو:

يا مشرعَ الماءِ قد سُدّتْ مسالكُه
أما إليكَ سبيلٌ غير مسدودِ؟!
لِحائمٍ حارَ حتى لا حياةَ به
مشرّدٍ عن طريق الماءِ مطرودِ

فلما سمعه المأمون قال: ويلك! لمن هذا؟ قال: يا سيدي، لعبدٍ من عبيدك جفوته واطّرحته؟ قال: إسحاق؟ قلت: نعم. قال: ليحضر الساعة. قال إسحاق: فجاءني الرسول، فسرتُ إليه. فلما دخلت، قال: ادن، فدنوت. فرفع يديه مادًّهما، فاتكأت عليه،

فاحتضنني بيديه، وأظهر من إكرامي وبرّي ما لو أظهره صديقٌ لي مُواسٍ لسرني)[133].

وبهذا يتبيّن أيضاً أن ما ذهبت إليه رواية (زرياب) من أنّ الموصلي كانَ مقرّباً إلى المأمون في أيّام دخوله بغداد ليس بصحيح، وذلك إذ يقول بطلها: (كان مجيء الخليفة الجديد المأمون قد أحدث جلبة كبيرة بين الناس (...) لمحت في رجال الحاشية المحيطة بالخليفة أستاذي وسيدي القديم: إسحاق الموصلي... انزويت خلف الحشود وعدت إلى بيتي أرجف)[134].

فما يذهب إليه التأمل في تلك الفترة أن المأمون كان منشغلاً عن إسحاق، واستمر ذلك، فلم يتيسر للأخير الدخول عليه إلا بعد مجيئه إلى بغداد بأكثر من عشرين شهراً.

هل سُحِل الأمين؟

تصوّر الرواية سحلاً متوهماً للأمين: (احتزوا عنقه وحمل أحدهم الرأس المقطوع على مقدمة رمحه، بينما انشغل الجنود الخراسانيون بربطه من قدميه ثم ربطه في سرج وضع على حصان وسحلوه في طول بغداد وعرضها)[135].

وهذا النقل غير صحيح، بل إنه لو كان صحيحاً لاشتهر، فإن طاهر بن الحسين، في رسالته إلى المأمون عن تفاصيل مقتل أخيه الأمين، كان يعتذر عن نصبه رأسه على باب الأنبار بأنه فعل ذلك لقطع الشكوك في أنه لا يزال حيّاً، وأما الجسد فلم يُسحل في بغداد، وإنما لفه رجال طاهر بن الحسين في رداء فرَس، وذهبوا به إلى بستان، ودفنوه[136].

---

(133) العقد الفريد، ابن عبد ربّه، ج35/7

(134) رواية زرياب (ص104).

(135) رواية زرياب (ص103).

(136) انظر: تاريخ الطبري، ج487/8و488و492.

كساد الغناء

وبسبب التصور الخاطئ للعصر العباسي، وقعت الرواية في خطأ آخر، إذ ادّعت أن الغناء كسد، وتوقعت أن يكون ذلك بسبب من وصفتهم بالفقهاء السطحيين، يقول بطلها: (والشيء الغريب أن الغناء والمغنين قد اضمحل سوقهم، فلم تعد تسمع نغمة في قصر أو بيت فاره أو حتى في جلسة سمر عادية، لم أكن أعلم ما إذا كان المأمون ورجاله أولئك النفر الذين جاؤوا معه من الفقهاء السطحيين الفارغين من كل إحساس صادق أو شعور مفهم بالمحبة قد قصدوا بذلك استمالة الناس والتلميح لهم بأن كل ما له علاقة بالفسق والمجون والفحش الذي يأتي من الغناء والمغنين الذين هم أس كل بلاء قد انتهى في عهده وولى إلى غير رجعة)[137].

وهذا من التوهّم، فإن الغناء لم يتوقف لأجَل قدوم المأمون، لكن الخليفة لم يتسنّ له أن يسمع شيئاً من الغناء لانشغاله بأمور الحكم، إذ إنه قدم بغداد وقد بلغت من الاضطراب والخراب ما بلغت، كما أنه كان يعاني قلة الموارد المالية، وظل على ذلك وقتاً، حتى إنه اغتم لضيق النفقات في سفره إلى الشام، فلم يكن مع ذلك -دون شك- يستطيع تحمل نفقات جلسات الغناء الفارهة، وأما بعد ذلك، عقبَ استتباب الأمور وتتابع مجيء الأموال إليه، فقد عادت الأمور إلى بعض ما كانت عليه في زمن الرشيد، وظل يدخل عليه إسحاق وغيره من أهل الغناء، واستمر ذلك في وقت المعتصم والواثق من بعده.

وفي هذا المعنى يقول الطبري:

---

(137) رواية زرياب (ص106).

(وذكر عن العيشي صاحب إسحاق بن إبراهيم، أنه قالَ: كنت مع المأمون بدمشق، وكان قد قلّ المال عنده حتى ضاق، وشكا ذلك إلى أبي إسحاق المعتصم، فقال له: يا أمير المؤمنين، كأنك بالمال وقد وافاك بعد جُمعة، قالَ: وكان حُمل إليه ثلاثون ألف ألف من خراج ما يتولاه له، قالَ: فلما ورد عليه ذلك المال، قالَ المأمون ليحيى بْن أكثم: اخرج بنا ننظر إلى هذا المال، قالَ: فخرجا حتى أصحرا، ووقفا ينظرانه، وكان قد هيئ بأحسن هيئة، وحُليت أباعره، وألبست الأحلاس الموشّاة والجلال المصبغة وقلدت العهن، وجُعلت البُدر بالحرير الصيني الأحمر والأخضر والأصفر، وأبديت رءوسها قالَ: فنظر المأمون إلى شيء حسن، واستكثر ذلك، فعظم في عينه، واستشرفه الناس ينظرون إليه، ويعجبون منه، فقال المأمون ليحيى: يا أبا محمد، ينصرف أصحابنا هؤلاء الذين تراهم الساعة خائبين إلى منازلهم، وننصرف بهذه الأموال قد ملكناها دونهم! إنا إذاً للئام، ثم دعا محمد بْن يزداد، فقال له: وقّع لآل فلان بألف ألف، ولآل فلان بمثلها، ولآل فلان بمثلها. قال: فو اللّه إن زال كذلك حتى فرّق أربعة وعشرين ألف ألف درهم ورجله في الركاب، ثم قالَ: ادفع الباقي إلى المعلّى يعطي جندَنا. قالَ العيشي: فجئت حتى قمت نصبَ عينه، فلم أردّ طرفي عنها، لا يلحظني إلا رآني بتلك الحال، فقال: يا أبا محمد، وقّع لهذا بخمسين ألف درهم من الستة الآلاف ألف، لا يختلس ناظريّ. قالَ: فلم يأت عليّ ليلتان حتى أخذت المال)[138].

(138) تاريخ الطبري، ج652/8و653.

الوتر الخامس

يلتقي زرياب في الرواية –بعد تجوال دام ستة أشهر- بنجار في بغداد، فيسلمه أمعاء شبل نمر نتنة ظلت مختزنة لديه نصف عام، ويطلب منه أن يصنع له عوداً بخمسة أوتار منها!

يقول البطل: (تذكرت تلك الأمعاء؛ أمعاء شبل النمر)[139]، ثم: (طوال ستة أشهر كنت أمضي في جولات طويلة في سوق النجارين)[140]، ثم يدور بينه وبين النجار حوار: (-الأوتار. متى أحضرها لك يا سيدي؟ -هل لديك أوتار؟ - نعم. أمعاء شبل نمر. ما إن تفوهت بتلك الكلمة حتى برقت عيناه بسرور وجذل. شد على يدي ثم قال بفرح: - لقد أحسنت الاختيار لأوتار عودك. ريثما أنتهي من بناء جسد العود أحضرها وسأربطها في أربعة مسارات. – بل خمسة)[141].

وهذه **ظلمات بعضها فوق بعض**، فالوتر الخامس إنما اخترعه زرياب في الأندلس، ومعَ أنه مذكور في الكتب القديمة وكان بعض الخواص يقترحونه على إسحاق الموصلي، فإن زرياباً لم يصنعه إلا بعد استقراره في بلاط الأمير عبدالرحمن بن الحكم.

وهذه القصة يرويها الأصفهاني عن علي بن يحيى المنجم، قال: (كنت عند إسحاق بن إبراهيم بن مصعب، فسأل إسحاق الموصلي، أو سأله محمد بن الحسن بن مصعب، بحضرتي، **فقال له: يا أبا محمد، أرأيت لو أن الناس جعلوا للعود وتراً خامساً للنغمة الحادة التي هي العاشرة على مذهبك أين كنت تخرج منه؟ فبقي إسحاق واجماً ساعة طويلة مفكراً، واحمرت أذناه، وكانتا عظيمتين، وكان إذا ورد عليه مثل**

---

(139) رواية زرياب (ص30).
(140) السابق (ص32).
(141) السابق (ص32و33).

هذا احمرّتا وكثر ولوعه بهما، فقال لمحمد بن الحسن: الجواب في هذا لا يكون كلاماً، إنما يكون بالضرب، فإن كنت تضرب أريتك أين تخرج، فخجل وسكت عنه مغضباً، لأنه كان أميراً، وقابله من الجواب بما لا يحسن، فحلم عنه.

قال علي بن يحيى: فصار إليّ به وقال لي: يا أبا الحسن، إن هذا الرجل سألني عما سمعت، ولم يبلغ علمه أن يستنبط مثله بقريحته، وإنما هو شيء قرأه في كتب الأوائل، وقد بلغني أن التراجمة عندهم يترجمون لهم كتب الموسيقى، فإذا خرج إليك منها شيء فأعطنيه. فوعدته بذلك، ومات قبل أن يخرج إليه شيء منها. وإنما ذكرت[142] هذا بتمام أخباره كلها ومحاسنه وفضائله، لأنه من أعجب شيء يؤثر عنه أنه استخرج بطبعه علماً رسمته الأوائل لا يوصل إلى معرفته إلا بعد علم كتاب إقليدس الأول في الهندسة، ثم ما بعده من الكتب الموضوعة في الموسيقى، ثم تعلم ذلك وتوصل إليه واستنبطه بقريحته، فوافق ما رسمه أولئك ولم يشذ عنه شيء يحتاج إليه منه، وهو لم يقرأه، ولا له مدخل إليه، ولا عرفه...)[143].

فبهذا يتبين أن إسحاق الموصلي كان يهتم ويغتم عندما يأتيه أحد باقتراح عن إضافة الوتر الخامس إلى العود، ويعلم أن ذلك إنما قرؤوه في الكتب المترجمة التي لم تصل إليه حتى وفاته عام 335هـ، فكيف للمؤلف أن يقنعنا بأن هذا الوتر الخامس، الذي كان يقلق إسحاق الموصلي ويبحث عن قصته حتى مات، كيف له أن يقنعنا بأن زرياباً استخدم العود

(142) من هنا يستأنف الأصفهاني تعليقه على قصة علي بن يحيى المذكورة.
(143) الأغاني، الأصفهاني، ج174/5و175.

ذا الوتر الخامس بين يديه، وبحضوره في بلاط الرشيد، دون أن يعلم بذلك[144]؟!

وأما أن زرياباً كان يذهب إلى النجارين ليصنعوا له عوداً ويربطوا له عليه أوتاراً من أمعاء أشبال النمور، فهذا ينبئ عن تصور خاطئ عن تطوير صناعة العود عند زرياب، فإنه كان يصنعه بنفسه، كما ينقل صاحب نفح الطيب: (وزاد زرياب بالأندلس في أوتار عوده وتراً خامساً اختراعاً منه (...) فأضاف زرياب من أجل ذلك إلى الوتر الأوسط الدموي هذا الوتر الخامس الأحمر الذي اخترعه بالأندلس)[145]، وفي الموسوعة العربية العالمية: (وكان بارعاً في الموسيقى، وعُرف عنه أنه كان يصنع عوده بنفسه، وكان ذلك سبباً في تقريب الخليفة هارون الرشيد له عندما قدمه إسحاق الموصلي لمجلسه)[146]. ولعل الموسوعة أخذت ذلك من نفح الطيب (وسبق أن أوردناه)، وهو أن زرياباً قال للرشيد عن عوده: (لي عودٌ نحتهُ بيدي وأرهفتُه بإحكامي)[147]، كما أن العود الذي صنعه زرياب في عهد الرشيد -كما سبق أن نقلناه عن نفح الطيب- لم يكن فيه أمعاء شبل نمر، وإنما كان من مصران شبل الأسد، ثم إن الأوتار التي صنعها زرياب لم تكن كلها من مصران شبل الأسد، وإنما اثنان منها فحسب هما (البمّ) و(المثلث)، وأما الوتران الآخران (المثنى والزير) فكانا من حرير، وفي هذا يقول زرياب للرشيد: (وأوتاري من حرير لم

(144) وقد مرّ معنا أن هارون الرشيد لما رأى عود زرياب قال له إنه لا يراه هو وعود أستاذه إلا واحداً، ولا يؤدي النظر غير ذلك (انظر: نفح الطيب، المقّري التلمساني، ج123/3)، فدل ذلك على أنه لم يكن زائداً بوتر عن عود إسحاق، وما في الرواية قريب من هذا (انظر: رواية زرياب، ص64)، فتأمل هذا التناقض فيها. (وانظر في تاريخ وفاة إسحاق: سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج154/9).

(145) نفح الطيب، المقّري التلمساني، ج126/3.

(146) الموسوعة العربية العالمية، ج578/11.

(147) نفح الطيب، المقّري التلمساني، ج123/3.

يغزل بماء سخن يكسبها أناثة ورخاوة، وبمّها ومثلها اتخذتهما من مصران شبل أسد)[148].

أزمنة الألحان وأوزان الشعر

إن من أوجب ما يجب على الروائي أن يكون ملمّاً بتفاصيل شخصيته، وحريصاً على تحليها بالمهارات التي تمتلكها في واقعها الحقيقي، والإخلال بذلك يفضي إلى رسم صورة مشوهة لها، وعلى رغم أن زرياباً تلميذ إسحاق الموصلي الذي طوّر الألحان، فإن رواية مقبول العلوي لا تتعرض لشيء من ذلك، ولا إلى ملمح منه، يقول الأصفهاني عن أستاذ زرياب:

(وهو الذي صحح أجناس الغناء وطرائقه، وميزه تمييزاً لم يقدر عليه أحد قبله ولا تعلق به أحد بعده، ولم يكن قديماً مُمَيِّزاً على هذا الجنس، إنما كان يقال: الثقيل وثقيل الثقيل، والخفيف وخفيف الخفيف، وهذا عمرو بن بانة، وهو من تلاميذه يقول في كتابه: الرمل الأول، والرمل الثاني، ثم لا يزيد في ذكر الأصابع على الوسطى والبنصر، ولا يعرف المجاري التي ذكرها إسحاق في كتابه مثل ما ميز الأجناس، فجعل الثقيل الأول أصنافاً، فبدأ فيه بإطلاق الوتر في مجرى البنصر، ثم تلاه بما كان منه بالبنصر في مجراها، ثم بما كان بالسبابة في مجرى البنصر، ثم فعل هذا بما كان منه بالوسطى على هذه المرتبة، ثم جعل الثقيل الأول صنفين،

(148) نفح الطيب، المقّري التلمساني، ج123/3. وأما ذكر الوترين (المثنى والزير) ففي الجزء نفسه (ص126)، وسبق أن سقنا هذا كله في مطارحاتي مع أبي صالح (الموضع الثالث).

الصنف الأول منهما: هذا الذي ذكرناه، والصنف الثاني: القدر الأوسط من الثقيل الأول، وأجراه المجرى الذي تقدم من تمييز الأصابع والمجاري، وألحق جميع الطرائق والأجناس بذلك، وأجراها على هذا الترتيب، ثم لم يتعلق بفهم ذلك أحد بعده فضلاً عن أن يصنفه في كتابه، فقد ألف جماعة من المغنين كتباً، منهم يحيى المكي، وكان شيخ الجماعة وأستاذهم، وكلهم كان يفتقر إليه ويأخذ عنه غناء الحجاز، وله صنعة كثيرة حسنة متقدمة، وقد كان إبراهيم الموصلي وابن جامع يُضطران إلى الأخذ عنه، ألف كتاباً جمع فيه الغناء القديم، وألحق فيه ابنه الغناء المحدث إلى آخر أيامه، فأتيا فيه في أمر الأصابع بتخليط عظيم، حتى جعلا أكثر ما جتّساه من ذلك مختلطا فاسداً، وجعلا بعضه فيما زعما تشترك الأصابع كلها فيه، وهذا محال، ولو اشتركت الأصابع لما احتيج إلى تمييز الأغاني، وتصييرها مقسومة على صنفين: الوسطى، والبنصر. والكلام في هذا طويل ليس موضعه هاهنا، وقد ذكرته في رسالة عملتها لبعض إخواني ممن سألني شرح هذا، فأثبتُّه واستقصيته استقصاءً يُستغني به عن غيره، وهذا كله فعله إسحاق واستخرجه بتمييزه حتى أتى على كل ما رسمته الأوائل، مثل إقليدس، ومن قبله ومن بعده من أهل العلم بالموسيقا، ووافقهم بطبعه وذهنه فيما قد أفنوا فيه الدهور، من غير أن يقرأ لهم كتاباً أو يعرفه)[149].

(149) الأغاني، الأصفهاني، ج174/5.

فهذه الأصناف من الألحان التي امتلأ بها كتاب الأغاني طولاً وعَرضاً، لم يأتِ منها زرياب بشيء في الرواية، ولا تحدث عن شيء منها، ولو من طرف خفيّ، مع أنها صَميم مهنته، وسر عبقريته وتفوقه!

أما ما يتعلق بأوزان الشعر، فهذه أعجوبة أخرى، فإن زرياباً البارع في الأدب والشعر والأوزان والألحان والتواريخ والأزياء، لا يستطيع في الرواية أن يجيد حكاية خمسة أبيات شعرية من مجموع ستة، هي الواردة في الرواية[150].

فزرياب هنا، كما تقدمه هذه الرواية، يخلط بين الشطر والبيت، فيأتي ببيت كامل على تنسيق شطر، ثم يأتي بالبيت الثاني على أنه شطرُه الثاني، ولا يكتفي بذلك، بل يكسر الأبيات، فيحذف حركة لازمة، ويُقحم حركة وسكوناً في شطر بيت، بحيث يختل الوزن بذلك! كما أنه يضع الهمزات القطعية في مواضع يلزم تسهيلها فيها حفظاً لوزن الشعر من الكسر[151].

وبيان ذلك أنه أورد بيتين للعتاهية على هذه الصفة:

(لستَ بالباقي لو عُمّرت ما عمّر نوح

---

(150) البيت السادس في (ص65) من الرواية.

(151) انظر همزة القطع التي كان ينبغي تسهيلها لسلامة الوزن في البيت الأول: رواية زرياب (ص183)، وقد يقول لي قارئ ناصح: لماذا تركز وتدقّق حتى في الهمزات التي يقع الخطأ فيها بسبق القلم؟ فأقول: إنما تعرّضت لما له علاقة بالأوزان والألحان التي هي صميم مهنة زرياب وتخصصه، ولو أنني أتتبع الهمزات والهفوات اللغوية للزمني أن أضع جدولاً طويلاً جداً بالأخطاء الإملائية والنحوية التي احتشدت بها هذه الرواية التي يفترض أنها مذكرات كتبها زرياب الأديب المبدع بيده!

فعلى نفسك نحْ إن كنت لا بد أن تنوح)[152]!

وبهذه الصورة يظهر كيف أن المؤلف جعل زرياباً يتوهّم أن البيتين بيتٌ واحد، وكيف جعل بطله الذي يُفترض أن يكون أعرف الناس بهذه الأشياء ينقل إلينا بيتين كلاهما مكسوران.

بيد أن الوزن الصحيح للبيتين، على النحو الآتي:

لستَ بالباقي ولو عُمـ ـمِرتَ ما عُمّرَ نوحُ
فعلى نفسِكَ نحْ إنْ كنتَ لا بدّ تنوحُ

لقد كان يغني كاتب الرواية عن كل هذا الصداع والتسطيح لشخصية البطل البريئة من كل هذا الزيف أن ينقل البيت على صورته من ديوان شعري أو من أحد كتب الأدب أو التاريخ المعتمدة[153].

الفرّاء وابن الفرّاء

من أوهام الرواية أنها خلطت بين الفرّاء وابن الفراء في مواضع عدة[154]، فهي تقدم لنا العالم المعاصر لزرياب، الملقب بالفرّاء، في جميع المواضع على أنه ابن الفرّاء، وهما شخصيتان مختلفتان، تماماً، فابن الفرّاء هو القاضي أبو يعلى

(152) رواية زرياب (ص16).
(153) البيت منقول في الكتب بألفاظ عدة، كلها سليمة الوزن، واللفظ المذكور أول ما وجدته عند الطبري (انظر: تاريخ الطبري، ج170/8).
(154) انظر: رواية زرياب (ص35و47و59).

الحنبلي (المتوفى 458هـ)[155]، وأما الفرّاء المعاصر لزرياب، عالم النحو (المتوفى 207هـ)[156] فهو المقصود في الرواية، لكنها لم تدّعُه إلا ابن الفرّاء!

شكسبير في بغداد

من أشد المزالق التي يفطن لها الروائيون مسألة اللغة، وتعدد الأصوات، فمن دون ضبط اللغة وبناء واقعها تصبح الرواية خارج سياقها الإقناعي، ومن دون تعدد الأصوات (حتى مع الذات) لن يوجد في الرواية صراع[157]، ويختفي بذلك الأساس الذي من أجله أصبحت الرواية أدباً إنسانياً.

من أجل ذلك، عندما يأتي زرياب الرواية ويقول: (**أكون أو لا أكون**)[158]، وهي عبارة لشيكسبير في مسرحية هاملت! أو عندما يتحدث عن (**رفقاء رائحة المخطوطات**)[159] في بيت الحكمة! (وهل كانت الكتب آنذاك إلا مخطوطات يستنسخها الوراقون؟ وهل وجد مصطلح المخطوطات ذلك الحين)؟! وكذلك، عندما تفاجئنا الرواية ببعض العبارات المعاصرة مثل (**يتحرشون بزوجتي**)[160]، و(**أية ريح طيبة جاءت بك**)[161]! و(**ازداد عداء الناس الملتحين لي**[162]، **وأقول**

(155) انظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج325/13.
(156) انظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج291/8.
(157) انظر في هذا المعنى: تأملات في اسم الوردة، أمبرتو إيكو، ترجمة سعيد الغانمي (ص45و82).
(158) رواية زرياب (ص63).
(159) السابق (ص58).
(160) السابق (ص75).
(161) السابق (ص167).

الملتحين لأنهم لا يعرفون من الدين إلا رسمه وشكله ومظهره الخارجي فقط)[163]! و(أولئك الحساد المتأسلمون)[164]! و(تفاحة آدم المهداة إلى حواء)[165]، وأيضاً، عندما نصطدم ببعض الألفاظ شبه العامية المعاصرة مثل (طبطبت على ظهره)[166]! وهلمّ جراً، فإن هذا يجعل الرواية تنفي القارئ من سياقها التاريخي، أو تقدم نفسها إليه على أنها محاكاة مبسّطة للواقع، وكلا الأمرين يعدّان ما أمارات رداءة الرواية التي تتصف بهما[167].

أما نموّ الشخصيات، فإننا لا نكاد نلحظه ألبتة، ما عدا تحول إسحاق إلى حسد تلميذه زرياب[168]، وتغيّر زرياب بعد انتقاله إلى الأندلس من الطيبة إلى المكر[169]، أو بعض التغيّرات الطفيفة في التعامل أو الأمزجة بسبب ضغوط شخصية أو مجاملات اجتماعية أو سياسية (كما تصورها الرواية)[170].

وأما في سياقها وإيقاعها وحوارها الداخلي، فرواية (زرياب) تصرّ على أن تغير جميع القناعات بإيقاع شعريّ موحّد، يعتمد على تنميط المواقف التي لا تروق للبطل وتسطيحها، فزرياب

---

(162) كان الرجال في تلك الأزمنة ملتحين، حتى إن الفقهاء تكلموا في حكم التعزير بحلق اللحية! (انظر: الإنصاف، المرداوي ج248/10).
(163) رواية زرياب (ص179).
(164) السابق (ص181).
(165) السابق (ص24).
(166) السابق (ص83)، ونماذج هذه العبارات كثيرة، أكتفي منها بما ذكرته.
(167) انظر: رسائل إلى روائي شاب، ماريو برغاس يوسا، ترجمة صالح علماني (ص30).
(168) انظر: رواية زرياب (ص67).
(169) انظر: السابق (ص210).
(170) انظر: السابق (ص 115و173و181).

لا يرتكب الأخطاء البشرية الفادحة، ولا يصطرع في قلبه وازع الخير والشر، وكأنه ملَك من الملائكة، ولهذا فإن الذين تكون حال زرياب معهم على ما يرام يكونون أولئك المتحضرين الذين يحبون الحياة ويبحثون عن الجديد[171]، لكن أولئك الذين تتعقد أموره معهم فهم إما من المتدينين المتشددين، وإما من الحسّاد، وإما من أولئك الذين لا يحبون الفرح والحياة[172]، في رواية تكاد تخلو من التدافع الإنساني الطبيعي أو حتى الخلافات الزوجية، وكأنها نموذج مستخلص من حكاية سهلة للأطفال.

(171) انظر: السابق (ص94و198).
(172) انظر: السابق (ص106و173و181و209).

آلات الزمن العجيبة

إن كنت استطعت أن تصبر معي أيها القارئ على رُقى العقارب وهذر البُناة[173]، فلا شكّ أنك ستستطيع أن تعبر معي على ثلاث من آلات الزمن التي صنعتها لنا رواية (زرياب).

آلة الزمن الصغرى

في آلة الزمن الصغرى هذه، تحرّف رواية (زرياب) الأحداث التي بسببها طرد زيادة الله بن الأغلب زرياباً من مجلسه، وذلك بتغيير الترتيب بين السبب والمسبب، بجعل أحدهما مكان الآخر.

والقصة كما يرويها ابن ربه في العقد الفريد بهذا النص:

(وكان لإبراهيم الموصلي عبد أسود يقال له زرياب، وكان مطبوعاً على الغناء، علمه إبراهيم[174]، وكان ربما حضر به مجلس الرشيد يغني فيه، ثم إنه انتقل إلى القيروان، إلى بني

---

(173) رقى العقارب وهذر البُناة، وصف جائرٌ أطلقه ابن الرومي على شعر البحتري في هجائه إياه، إذ يقول: (رقى العقاربٍ أو هذرُ البُناةٍ إذا... أضحوا على شعَف الجُدران في صخَبِ)، (انظر: ديوان ابن الرومي، شرح أحمد حسن بسج، ج180/1)، واستعرتُه هنا لظرافته، وليس لأنني أُوافقُ على ما عاب به ابن الرومي شعر البحتري.

(174) قلت: هذا المقطع سبق أن أوردناه، لكن الآن ننبه إلى أن هذا لا يتعارض مع أن زرياباً تتلمذ على إسحاق كذلك كما تتلمذ على أبيه إبراهيم، فقد مات إبراهيم الموصلي عام 188هـ، وهذا وقت كاف ليأخذ عنه زرياب. (انظر: سير أعلام النبلاء، ج521/7). وانظر ما قاله، ابن خلدون عن زرياب أنه (معلَّم إبراهيم الموصلي)، (بفتح اللام وتشديدها)، (تاريخ ابن خلدون، ج164/4)، وسبق أن نبهنا مرّة على نقل المقّري أن زرياباً أخذ عن إسحاق (استراقاً)، (نفح الطيب، المقري التلمساني، ج122/3).

الأغلب، فدخل على زيادة الله بن الأغلب، ففناه بأبيات عنترة الفوارس، حيث يقول:

فان تك أمّي غرابيّةً ... مِنَ ابناءِ حامٍ بها عِبتني
فإني لطيف ببيض الظُّبا ... وسمر العوالي إذا جئتني
ولولا فرارُكَ يومَ الوغى ... لقدتك في الحرب أو قدتني

فغضب زيادة الله، فأمر بصفع قفاه وإخراجه، وقال له: إن وُجدت في شيء من بلدي بعد ثلاثة أيام ضربت عنقك! فجاز البحر إلى الأندلس، فكان عند الأمير عبد الرحمن بن الحكم)[175].

ما الذي صنعته رواية (زرياب)؟ عكست الرواية الحادثة تماماً، فجعلت الأمير يشتم زرياباً وقت دخوله عليه ويطرده، فغضب زرياب وهجا الأمير في وجهه بهذه الأبيات، وجيء بآلة الزمن الصغرى هذه لغرض تبرئة زرياب من إساءته إلى الأمير الأغلبي التميمي (كان من الممكن أن نتفهم هذه الحيلة النفسية لو كان المقصود بها أن زرياباً يحتال لكي يكذب لصالح نفسه في جزئه المروي من القصة، بيد أن هذا لم يكن المراد، وإنما غيّر المؤلف ترتيب وقائع الموقف لكي يحوّر سبب طرد زيادة الله لزرياب ويقنع القارئ بأنه إنما كان بسبب وشايات رجال الدين المتشددين).

تقول الرواية:

(175) العقد الفريد، ابن عبدربه، ج37/7.

(وحينما دلفت إلى الديوان الغاصّ بالقادة والمستشارين ورجال الدين سكت الجميع وكأن على رؤوسهم الطير. وقفت أمام الأمير "الصديق" وجهاً لوجه، فوجدته يقول لي بالحرف الواحد: - إنني يا ابن السوداء أمنحك ثلاثة أيام لكي تغادر القيروان وإن وجدتك بعد هذه الثلاثة في أرض أفريقيا كلها فأنا في حل من دمك. وارتج المجلس بالتكبير والتهليل والدعاء بالنصرة للأمير على أعدائه. لقد وصفني بالأسود هذا الأمير الذي كان يتمايل طرباً من غنائي ويقول لي في كل نوبة طرب: -زدني. لا أعلم حتى كتابة هذه الأسطر كيف تفوهت بأبيات لعنترة العبسي لجمتْ كل من كان في هذا المجلس، لقد نبش هذا الأمير ورجاله القساة القلوب جرحاً لم يندمل بعد: فإن تك أمي غرابية من أبناء حام بها عبتني. فإني لطيف ببيض الظبا وسمر العوالي إذا جئتني. ولولا فرارك يوم الوغى لقدتك في الحرب أو قدتني. ثم قلت بعدها بهدوء وأنا أنظر إلى كل واحد منهم... – أنا رجل حر. دخلت هذه البلاد كرجل حر ولست عبداً ولن أكون بعد اليوم)[176].

آلة الزمن الوسطى

تزعم الرواية أن من إرهاصات طرد زيادة الله الأغلبي لزرياب خطاباً متسرعاً جاء من المأمون:

(176) رواية زرياب (ص182و183).

(وعدت إلى سالف عهدي نديماً ومغنياً لأمير القيروان، وصممت أذني عن كل ما يقال في شخصي، واستمرت علاقتي الطيبة بالأمير الشاب حتى... حتى... جاء ذلك الخطاب من بغداد فغيّر كل شيء وقلب الأمور رأساً على عقب. كان خطاباً متسرعاً من الخليفة المأمون يأمر فيه واليه على أفريقيا زيادة الله بن الأغلب أن يدين بفروض الولاء والطاعة لوالي مصر عبد الله بن طاهر، وأن يدعو له في خطبة الجمعة ويسلمه خراج أفريقيا كاملاً غير منقوص)[177].

إذا كنت اقتنعت بهذا أيها القارئ، فإنك قد امتطيت آلة الزمن الوسطى دون أن تعلم.

وذلك أن عبدالله بن طاهر تولى مصر عام 211هـ[178]، أي بعد طرد زيادة الله لزرياب بخمسة أعوام. قال ابن خلدون: (وقدم عليه سنة ست ومائتين من العراق زرآب المغنّي مولى المهدي ومعلّم إبراهيم الموصلي، واسمه علي بن نافع) [179].

وهذه المعلومة لا يجادل فيها مؤلف الرواية –على الأقل-، الذي يقول في أحد حواراته: (وزرياب دخل إلى أرض الأندلس في 206هـ تقريباً)[180].

---

(177) رواية زرياب (ص178).
(178) انظر: الأعلام، الزركلي، ج93/4.
(179) تاريخ ابن خلدون ج164/4.
(180) صحيفة الرياض، حوار عبدالله الزماي مع مقبول العلوي، بتاريخ 15 يوليو 2015. وفي وصول زرياب إلى الأندلس أقوال أخرى لم أحبذ التوسع في ذكرها، لكنها جميعاً تنص على أنه وصل قبل عام 211هـ، الذي تسلّم فيه ابن طاهر ولاية مصر.

كذلك، زعمت الرواية أن دخول زرياب إلى القيروان كان على وقت ثورة زياد بن الصقلبية:

(دخلت القيروان من باب "أبي الربيع" بعد أن دسست ثلاثة دنانير في يد جندي حارس متجهم الوجه ضيق الخلق للبوابة التي اخترت الدخول منها، وقد حاول أن يؤخر دخولي إلى المدينة بحجج واهية؛ حجج من قبيل أن الوالي أصدر أوامر صارمة بعدم السماح بدخول أي غريب إلى المدينة إلا بعد تفتيش دقيق، خصوصاً أن الوالي زيادة الله كان على أهبة الاستعداد لقمع ثورة قد أطلت برأسها في مدينة باجه. كان محرك هذه الثورة رجل عنيد شديد المراس يدعى زياد بن سهل ويشتهر باسم ابن الصقلبية)[181]. وأيضاً: (وهم على كل حال يستعدون للقضاء على ثورة ابن الصقلبية)[182]. وأيضاً: (فجيوش مولانا السلطان زيادة الله بن الأغلب نصره الله قد أخمدت ثورة العصيان وقضت عليها في مهدها، وقتل مديرها ومدبرها وصاحبها ابن الصقلبية)[183].

فإذا علمت أن أغلب المصادر المعتمدة في هذا ذكرت أن زرياباً وصل إلى الأندلس عام 206، وأن المؤلف يوافق على ذلك، ثم علمتَ أن ثورة ابن الصقلبية في باجة اندلعت عام 207هـ، فلا شك أنك تقرّ معي بأنك امتطيتَ مع رواية (زرياب) هذه المركبة التي أسميها آلة الزمن الوسطى!

(181) رواية زرياب (ص151).
(182) السابق (ص153).
(183) السابق (ص163).

قال ابن عذاري المراكشي: (وفي سنة 207 ثار زياد بن سهل على زيادة الله بن الأغلب، وزحف إلى حرب باجة، فحاصرهما أياماً. فأخرج إليه زيادة الله العساكر فهزموا زياداً، وقتلوا من وجدوا معه على الخلاف وغنموا الأموال)[184].

آلة الزمن الكبرى

في خواتيم رواية (زرياب) تقرأ ما يأتي:

(ورقة في آخر المخطوطة كتبها الشاعر القرطبي أسلم بن عبدالعزيز القاضي أحد تلاميذ زرياب المقربين. قرطبة في عام 238)[185]!

وهذه قاصمة الظهر، ذلك أن أسلم بن عبدالعزيز القاضي من علماء المالكية، ولم يحدث له قطّ أن تتلمذ على زرياب، فضلاً عن أن يمرّضه ويصاحبه في مرض موته وهو على وشك أن يلفظ أنفاسه الأخيرة[186]! بيد أن هذين شخصان من جيلين مختلفين، وبين وفياتهما نحو 80 عاماً!

قال أحمد بن يحيى بن عميرة (المتوفى 599):

(أسلم بن عبدالعزيز بن هاشم بن خالد بن عبدالله بن الحسن بن جعد بن أسلم بن أبان بن عمر ومولى عثمان بن عفان رحمه الله: من أهل قرطبة؛ يكنى: أبا الجعد. سمع: من بقي

(184) البيان المغرب، ابن عذاري المراكشي، ج96/1.
(185) رواية زرياب (ص217).
(186) السابق (ص217 وما بعدها).

بن مخلد وصحبه طويلاً. رحل إلى المشرق سنة ستين ومائتين فلقي أبا يحيى المزني، والربيع بن سليمان صاحب الشافعي، ومحمد بن عبدالله بن عبدالحكم، ويونس بن عبد الأعلى، وأحمد بن عبد الرحيم البرقي، وعلي بن عبدالعزيز وغيرهم جماعة. وسمع منهم عبدالرحمن، وعبدالله بن يونس، ومحمد بن قاسم، وغيرهم. فيمن دون أسنانهم. نا عنه جماعة من شيوخنا.

وتوفي (رحمه الله)؛ يوم الأربعاء لسبع بقين من رجب سنة تسع عشرة وثلاث مائة)[187].

لكن السؤال المتوارد هو: لماذا ظنّ مؤلف (زرياب) أن القاضي أسلم بن عبدالعزيز تلميذ زرياب؟

الجواب: أن لهذا القاضي حفيداً هو أسلم بن أحمد بن سعيد بن القاضي أسلم بن عبد العزيز بن هاشم، وله كتاب معروف في أغاني زرياب، ولكن أسلم الحفيد هذا لم يُصاحب زرياباً أيضاً، بل كان من أجيال جاءت بعده، لأنه توفي عام 395هـ، وعنه يقول ابن الفرضي: (أسلم بن أحمد بن سعيد بن أسلم بن عبدالعزيز بن هاشم بن خالد بن عبدالله بن حسان بن جعد بن أسلم بن أبان بن عمرو مولى عثمان بن عفان: من أهل قرطبة؛ يكنى: أبا عبدالله. سمع: من شيوخنا: أبي جعفر بن عون الله، وابن مفرج، وخلف بن محمد المؤدب، وأبي محمد

(187) بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، أحمد بن يحيى بن عميرة، ج239/1و240.

القلعي، وكان: أديباً، وتوفي: ليلة السبت لتسع بقين من ذي الحجة سنة خمس وتسعين وثلاث مائة، ودفن يوم السبت)[188].

وقد سبق أن نقلنا ترجمة الحَميدي له، وهذا نصها: (أسلم بن أحمد بن سعيد بن القاضي أسلم بن عبد العزيز بن هاشم أبو الحسن، له أدب وشعر، من أهل بيت علم وجلالة، وله كتاب معروف في أغاني زرياب، وكان زرياب عند الملوك بالأندلس كالموصلي وغيره من المشهورين، برز في صناعته، وتقدم فيها، ونفق بها؛ وله طرائق تنسب إليه؛ وأسلم هذا هو الذي ذكرنا قصته مع أحمد بن كليب)[189].

---

(188) تاريخ علماء الأندلس، ابن الفرضي، ج106/1.

(189) جذوة المقتبس، محمد بن فتوح الحَميدي، ج172/1.

قلت: لا تقتصر أوهام رواية (زرياب) وتخليطها بين الأشخاص والأزمنة على ما ذكرت في هذا الفصل وما قبله، وقد ضربت الذكر صفحاً عن أوهام أخرى لأن تتبعها يطول جداً، ومن تلك المواضع توهّم المؤلف أن رسالة زرياب من القيروان كانت إلى الأمير عبدالرحمن بن الحكم، والحقيقة أنها كانت إلى أبيه الحكَم، وأن الحكم هو الذي استدعاه، فمضى إلى الأندلس، ثم بلغ خبر وفاة الحكم زرياباً، فهم بالرجوع، لولا أن **منصوراً اليهودي** (رسول الحكم إليه) أقنعه بالبقاء حتى يعرض أمره على ابنه عبدالرحمن، الذي رحّب به واستدعاه واستقبله (انظر: نفح الطيب، المقّري التلمساني، ج125/3). ومن ذلك أن الرواية توهّمت –لسبب لا أعلمه- أن زرياباً هو من أدخل الحمامات إلى الأندلس**!** ولم أجد لذلك أصلاً إلا ما ورد في كتاب محمود الحفني (زرياب، أبو الحسن علي بن نافع موسيقار الأندلس)، ضمن سلسلة أعلام العرب، رقم (54). إذ قال (ص118): **(وكانوا ينسبون إلى زرياب كل جديد يظهر في قرطبة متصلاً بالظرف والجمال، من ذلك إنشاء "حمام زرياب" الذي يعتبر أعجوبة قرطبة من حيث البناء الفخم وما يضمه من معمار عجيب)**. انتهى. قلت: فربما كان هذا الذي أخذه بعض الكتاب المتساهلين في بحوث على الشبكة هو ما اعتمدت عليه الرواية في توهمها، وليس في هذا الكلام ما يدل على أن الأندلس لم تعرف الحمامات حتى القرن الثالث الهجري**!** كيف والحمّامات عُرفتْ قديماً عند الرومان وورد ذكرها في الحديث النبوي، وعرفها الناس على عهد فتوح عمرو بن العاص رضي الله عنه، إلى غير ذلك مما ليست هذه السطور موضع بسطه**!**

إن كتاب (أغاني زرياب) هذا كان هو السبب في حصول اللبس على مؤلف الكتاب واعتقاده أن أسلم بن عبدالعزيز القاضي الجدّ كان من تلاميذ زرياب، بيد أنه لا الجد ولا الحفيد كانا من تلاميذه ولا من أصحابه، وإن كان الحفيد ألف كتاباً في أغانيه.

وقبل أن نختتم المجلس، وينفضّ السامر، أودّ أن أنبه إلى أن هذا الكتاب إنما جاء ليكون **صرخة في وجه الرداءة، وفي وجه الحفاوة بها**، وليستقرّ دليلاً فيما يأتي من الأيام على أن ما يجري في المشهد الثقافي من هذه الحفاوة المستهجنة لم يمرّ مرور الكرام، وأن للأدب أهله وخواصّه الذين يهتمّون به ويحاولون أن ينفوا عن عينه القذى. وهو همسة إلى زملائي الكتاب والروائيين أن يتمهلوا ولا يتعجلوا، وأن يحرروا رواياتهم، أو يعرضوها على من يساعدهم في تحريرها. وإلى مانحي هذه الجوائز التي تتطاير هنا وهناك لتحيطَ -قلائدَ- بأعناق هذه الروايات البائسة بأن يسألوا كتابها: **هل حرّرتموها، أو عرضتموها على محررين؟** فإن لم يكن بد من اجتناب ذلك السؤال المحرج، فلا مناص لهم عندئذ من أن يوجبوا على المنخرطين في لجان جوائز هذه الروايات قراءتها، **وهو أضعف الإيمان**. وذلك أننا **قد نتفهم انطلاء هذه الأخطاء على القرّاء العاديّين، غير أننا لا نستطيع أن نتقبّل انخداع المحكّمين المتمرسين في منح الجوائز بها**، لأن أقل ما يقال في شأن ذلك أنه **من التطفيف والقسمة الضيزى**.

وبين يدي الفراغ من هذا العمل أقول: ليس هذا الكتاب بالذي أهدف به إلى أن أكون ذلك البعيد، الذي يرى القذى في عين غيره ويتعامى عن الجذع في عينه، فكاتب هذه

السطور –كغيره- تعاني كتاباته هذه الأخطاء المميتة، مما عرفتُ بعضه، وغاب عني سائرُه، ذلك أنني كنتُ محرّر كتاباتي الوحيد -بذلت في ذلك وسعي الشخصي على الأقل- ولم أحظ من الملاءة المادية ولا من وفرة الأصدقاء بما يساعدني على الاستعانة بمن يحررها معي. وعلى سبيل الإقرار، كانت لي محاضرة في نادي الطائف الأدبي بعنوان: (تجربتي مع أخطاء الإقناع السردي)[190].

وقد يأتي هذا السؤال:

وكيف للخيال أن يكون حرّاً وسط كل هذه الشروط؟

إن ذلك يتحصل بجملة واحدة:

للكاتب أن يتخيّل ما يشاء، ما لم يكن ذلك مضاداً للواقع الذي يفرضه العالم السردي.

وينبغي لنا هنا أن نختم بعبارة مهمة ذكرها أمبرتو إيكو في تأملاته عن روايته (اسم الوردة)، يشدد فيها على أنّ ليست الروايات التاريخية ولا الواقعية ولا التسجيلية ما تستوجب الالتزام بشروط عالمها وحدوده فحسب، بل إن لقصص الأطفال وروايات الخيال الجامح أيضاً شروطها الصارمة التي على الكاتب أن يمتثل أمرها، يقول:

(190) ألقيتُها في نادي الطائف الأدبي بتاريخ 11 يناير 2011، ونشرتها في موقع "جسد الثقافة" على الشبكة، وبعضها مدرج في هذا الختام.

(من الضروري خلق القيود من أجل الابتكار بحريّة، في الشعر قد يفرض القيدَ الوزنُ أو التفعيلة أو القافي، وهو ما يسمى بـ"النظم" بما يتوافق مع الأذن. في القصص يوفر العالم المحيط هذا القيد. ولا علاقة لهذا بالواقعية، حتى لو كان يفسر الواقعية أيضاً. يمكن تشييد عالم غير واقعي بالتمام والكمال، تطير فيه الحمير، وتستعاد فيه الأميرات إلى الحياة بقبلة، لكن هذا العالم الممكن على نحو خالص وغير الواقعي تماما، يجب أن يوجد بحسب بنىً يتم تحديدها منذ البداية، يجب أن نعرف ما إذا كان عالماً يمكن فيه استعادة أميرة إلى الحياة بقبلة من أمير وحسب أم أيضاً بقبلةٍ ساحرةٍ، وما إذا كانت قبلة الأميرة تحوّل الضفادع إلى أمراء فقط أم أنها أيضاً تحولهم إلى قنافذ على سبيل المثال)[191].

وإلى لقاء،،،،

للتواصل مع المؤلف

grnaty2@gmail.com

@abdulwahed1978

(191) تأملات في اسم الوردة، أمبرتو إيكو، ترجمة سعيد الغانمي (ص39).

الفهرس

العنوان الصفحة

عرفان لمن هو أهله..3

والحديث ذو شجون..4

غني عن القول ولا بد من ذكره..6

نزهة مع أبي صالح في زرياب نفح الطيب.......................................16

الموضع الأول...18

تعليق... 18

الموضع الثاني.. 25

تعليق... 26

ملحوظة... 31

الموضع الثالث..33

ملحوظة.....
48

ملحوظة
أخرى.....50

الموضع
الرابع.....53

تعليق.....
53

تذييل.....
55

تفاصيل الجرم
المشهود.....58

اقتفاء
الأثر.....69

الاعتراف الصريح الوحيد
.....79

الموال نفسه.....83

هذر الليالي
الشاتيات.....85

الكردي
الأسود.....85

فخ النسبة إلى الموصل
87.....

والدة إسحاق الموصلي
88.....

حجرة (ستار أكاديمي)
الإسحاقية.....89

هل طرد الأمين إسحاق.....
92

هل سُحل
الأمين.....95

كساد
الغناء.....96

الوتر
الخامس.....98

أزمة الألحان وأوزان
الشعر.....101

الفرّاء وابن
الفرّاء.....104

شكسبير في
بغداد.....105

آلات الزمن
العجيبة.....108

آلة الزمن الصغرى 108

آلة الزمن الوسطى..110

آلة الزمن الكبرى..113

وما أبرئ نفسي..117

سؤال قد يأتي 118

الفهرس 120